مع الإسلام

٢



بين الإنصاف والجحود

تأليف

محمد عبد الغنى حسن

تصدرها

مؤسسة المطبوعات الحديثة

مع الإسلام

٢

الإسلام
بين الإنصاف والجحود

تأليف
محمد عبد الغنى حسن

تصدرها
مؤسسة المطبوعات الحديثة

مقـدمة

كنت أقرأ للكاتب الانجليزى المفكر هـ · ج · ويلز كتابه فى معالم تاريخ الانسانية ، فوجدته يصف الاسلام بأنه « مملوء بروح الرفق والسماحة والأخوة » وأنه « عقيدة سهلة يسيرة الفهم » وأن محمدا – عليه السلام – « قد أوصل مبادىء الاسـلام الجـذابة الى سويداء قلوب البشرية ، دون أى رمزية مبهمة ، ودون أى تعتيم للهياكل ، ولا ترتيل للقسوس » ·

ثم قرأت له كلاما من كتاب له آخر فى مختصر تاريخ العـالم يقول فيه : « لقد أدخل الاسلام فى أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية،وأحيى فكرة سياسية عرفها البشر · ومد الى البشرية يد المعونة » · فنبهنى هذا الانصاف من مفكر مسيحى الى أن الدنيا ما تزال بخير ، ما دام فيها أناس يعرفون الخير ويعترفون به ، ولا يجدون بأسا ولا غضاضة فى الجهر بالحقيقة التى هى مناط الطالبين ، وغاية المنصفين ···

ثم قرأت بعد ذلك كلاما كثيرا عن الاسـلام ، ونبى الاسـلام ، والقرآن : دستور المسلمين ، لمستشرقين وغير مستشرقين ، ولقدماء ومحدثين ، فنبهنى ذلك الكلام – مرة أخرى – الى أن الحقيقة قد يحجبها ساتر من الأهواء ، أو تغشيها سحابة من الافتراء ، وقـد يعز على النفس المريضة أن تعترف للحقيقة بفضل ، أو أن تقر للحق بأذعان ·

وفى فيض هذه القراءات الطويلة خرجت بحصـيلة من الانصاف ومن الجحود للأسلام : رسالة ، ورسولا ، وقرآنا · وهى حصـيلة فيها كثير من المفارقات والمغالطات ·· فالنبى مثلا عند ويلز « شاعر غير مجيد » على أنه – بشهادة القرآن وشهادة منزل البيان – لم يعلم

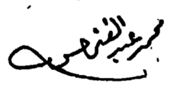
الشعر وما ينبغي له .. والوحي — كما يراه المستشرق « نولدكه » — هو نتيجة ما كان ينتاب النبى — عليه السلام — من نوبات الصرع ، على حين يدحض المستشرق « غويه » هذا الافتراض ، أو الافتراء ..

وصاحب الشريعة الاسلامية — كما يصوره المستشرق اليسوعى « لامنس » مكثر من الطعام والشراب الى حد أنه مات من البطنة ! وهو عند الباحث « بينيه سانجليه » متقشف قليل الغذاء صابر على الجوع والظمأ ..

واتهم النبى بالكذب ، وهى تهمة قديمة رماها به قومه ، حتى قالوا عنه : « ساحر كذاب » على الرغم من تيقنهم من صدقه واشتهاره به بينهم ، وخلطوا بين صدق فطرته،وصدق دعوته ، توصلا الى غرضهم، من انكار الدعوة ، ومعارضة النبوة ، ولكن المنصفين من الباحثين الغربيين اليوم لم يستطيعوا السكوت على هذه الفرية الباطلة ، فنجد المستشرق الفرنسى ومؤرخ الأدب العربى « هيوار » يقول : « اتفقت الأخبار على أن محمدا كان فى الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين » ..

وما ضار الاسلام ولن يضيره قول جاحد ، ولا حقد حاقد . على أن الاسلام وأهله يحفظون فضل المنصفين ، ويمرون باللغو مرور الكرام الطيبين .

وهذا الكتاب هو موكب لنبالة الانصاف ، وضآلة الاجحاف ..



الفصل الأول

من أسباب الجحود والتحامل

فى موجة التحامل والجحود التى أثارها الغربيون على الإسلام والنبى محمد بن عبد الله عليه السلام ، وعلى القرآن الذى أنزل على محمد مصدقاً لما بين يديه ، بل على المسلمين فى كل قطر من أقطارهم ، وعصر من عصورهم — كانت تبدو من هنا ومن هناك بعض أضواء من الحق ، أو لمعات من الإنصاف ، أو خطرات من حسن التقدير والتفكير ، تريح السارى فى ظلمات تلك الموجة الجاحدة التى لم تنل من الإسلام قدر ما نالته من أصحابها ومثيريها ، فلم يكونوا غير ناطحى صخرة صلدة قويةً عنيفة ، لم يضيروها بشىء ، ولم ينالوها بما بيتوا العزم عليه ، ولكنهم كانوا كالوعول حين يوهون قرونهم بنطح الصخور . . .

وقل أن تقرأ لباحث غربى أو مستشرق مؤلفاً فى الإسلام أو يتصل بموضوع الإسلام من قريب أو بعيد إلا وجدت فيه هنا وهناك مغامز ، وعثرتِ بين السطور على أشياء خفية يحاولون بها غرضاً معيناً ، ويدبرون أمراً مرسوماً. وكأنهم — إلا قلة نادرة من منصفيهم وأهل العلم الحقيق فيهم — يلتقون جميعاً على هدف واحد ، ويجتمعون على غرض واحد ، ينسون فى سبيله مقتضيات العلم وما يتطلبه من الإنصاف والحيدة وعدم التحيز ، والبعد عن التعصب ، وابتغاء وجـــه المعرفة وحدها . وبهذا يشوهون قدر العلم ، ويجعلون القارىء على جانب الحذر دائماً منهم ، بما

يثيرونه من ريب حول أغراضهم ، وما يبعثون من الشك فى سلامة طريقتهم ونياتهم .

والحق أن مناهج المستشرقين فى البحث هى مناهج يجللها الجد والدأب والمنهجية والتعمق ، والتحليل ، والإستقراء ، والاستنتاج ، والوصول إلى الحكم العام بعد عرض طائفة من الفرديات التى تتشابه فى مجموعة من الخصائص تجعلها صالحة لأن تندرج تحت حكم واحد . وبقدر ما فى طرائق البحث والاستنتاج من سلامة وحيدة تكون الأحكام العامة دائماً سليمة محايدة بعيدة عن الغرض .

ولا شك أننا مدينون لكثير من علماء المشرقيات والدراسات العربية الإسلامية على وجه الخصوص بطائفة كثيرة من المصنفات التى أسهمت بنصيب كبير فى ثروة الفكر ، كما كان لها — حين ترجمت إلى العربية — نصيب أى نصيب فى تقدم الدراسات ، وفى اتضاح كثير من الحقائق العلمية حول الموضوع المعالج ، وفى إضافة ذخيرة من الأصالة والابتكار فى البحث العلمى إلى المكتبة العربية .

وقد يكون للعقلية الغربية المنظمة القادرة على البحث والتحليل والتتبع الدقيق أثر فى ذلك الطابع الذى تتسم به دراساتهم وأبحاثهم ، فهى ليست عقلية طافرة ولا سريعة الوثب والقفز ، ولا مؤقتة الالتماع ، ولكنها عقلية غائصة إلى الأعماق عميقة الملاحظة والمتابعة للسمات والخصائص فى الجزئيات التى يجتمع منها معنى كلى ، صابرة على البحث لا تتقيد فى سبيل إتقانه وجودته بزمن يفرغ فيه ، أو فترة مقطوعة ينتهى عندها ، وإنما الزمن عندها ممتد حتى يبلغ البحث أجله ، ويستوفى غايته .

ولقد أعان رجال الاستشراق على أصالة بحوثهم أنهم وقع لهم من كنوز التراث الشرقى والعربى وذخائر أفكاره ما لم يقع لأهله وأصحابه. فقد جاء حين على المخطوطات العربية كانت مجهولة القدر عند أصحابها الذين هم أولى الناس بها، وأحقهم بصيانتها وحفظها، فانتقلت إلى خزائن الغربيين — فيما انتقل إليهم من التراث الشرقى والعربى — ومن هنا أكبوا عليها، وعكفوا على دراستها، وأطالوا البحث فيها، حتى استقام لهم من ذلك دراسات سبقونا إليها، وكنا نحن أحق بالسبق.

وهل تنسى جهود أمثال كوسان دى برسيفال، ونولدكه، وكارادى فو، وجوستاف لوبون، وسيديو، وبروكلمان، ودرمنجهم، وموير، وإرفنج، ومرجوليوث، وجولد تسيهر، ولامنس، وسبرنجر، وفيل، وفون هامر، وكريمر، وغيرهم ممن كتبوا عن الإسلام أو القرآن أو محمد أو المسلمين كتابات يتضح فيها أثر الجهد والبحث والتحليل ؟

ولكن البحث والتحليل شيء والإنصاف والنزاهة شيء آخر، وقد يجتمعان فى باحث أو يفترقان. وليس من الضرورى أن تنتظر من المخالف إنصافاً تاماً ألا إذا جردت النفس الإنسانية من عواطفها وانفعالاتها والمؤثرات الخاصة التى تحيط بها وتؤثر فيها.

على أنك إذا ضمنت الإنصاف فوق دقة البحث فى باحث غير عربى، فأنك لا تعدم أن تدخل عليه من ناحية أسرار اللغة العربية التى ليست لغته، ولم يحذقها وينفذ إلى كنهها نفوذ أبنائها إليها. وتلك مشكلة نلقاها عند علماء الاستشراق قديماً وحديثاً. فأنى لهم بفهم النصوص وسبرها

والوصول إلى أعماقها ، وفهم خصائص العربية والإحاطة بدقائقها التى لا تتاح إلا للعربى وحده ؟ .

ولن نعدم المئات والمئات من الأمثلة على عدم استواء الفهم للنص العربى عند أكثر المستشرقين .

ومن هنا قد يلتمس العذر للباحث الأجنبى إذا خرج عن القصد ، أو فهم الكلام على غير وجهه . أما حين يكون الكلام واضحاً فى أصله العربى ، والحادثة مستقيمة واضحة لا التواء فيها ولا حيد ، فأننا نحمل ذلك على الوجه الذى تقوى به الشبهة ، وتلتصق به التهمة ، وينتفى معه حسن النية . . .

والحق أننا لن نجرد المستشرق أو الباحث الأجنبى فى الدراسات الإسلامية وما إليها من التأثر بمواريثه الدينية الخاصة ، وبمزاجه الشخصى ، وبالظروف والملابسات التى تحيط به حين يكتب عن الإسلام أو نبى الإسلام أو قرآن المسلمين .

ومن زعم غير ذلك فقد اجترأ على تجريد النفس البشرية من بعض خصائصها أو تكليفها بما ليس فى طبعها . على أن المبالغة فى التأثر بالمؤثرات الخاصة فى مجال البحث العلمى ، المفروض فيه أن يكون نزيهاً منصفاً ، هى ما يعاب على الباحثين الذين يخلطون بين أصول العلم ونزاهة البحث ، والذين لا يستطيعون — وهم فى إسار التأثر والانفعال والعاطفة — أن يفرقوا بين الحقيقة التى يجب أن تقال ، وبين النزوة التى يجب أن تكبت . . .

ومن حسن الحظ أن الإسلام لم يضق صدره بناقد ولا حاقد ، وأنه على اختلاف العصور كان مثلا دائماً حياً لسعة الصدر ، واتساع الأفق ، ورحابة مدى النظر ، وأن الباحثين من رجال الإسلام كانوا يردون على المغامز والمطاعن — سواء أكانت صريحة أم خفية — رد العلماء الواثقين ، الذين لا يخدمون قضية الدين فحسب بدفاعهم ، بل يخدمون قضية العلم والبحث المجرد النزيه .

وإذا كنا نعزو تخبط بعض المستشرقين والباحثين الأجانب فى الدراسات الأدبية العربية إلى عدم فهمهم التام لأسرار اللسان العربى ، فأن تخبط بعضهم فى الدراسات الإسلامية التى يقومون بها ويتصدون لها قد يعزى إلى جهلهم بحقيقة الإسلام وفهمه على حقيقته والنفوذ إلى أسراره ، والإحاطة بروحه التى لا يدركها إلا العليم .

وقد يهون الجهل إذا كان وحده سبباً للجحود وعدم الإنصاف ، ولكن إذا اجتمع له سوء النية ، وخبث الطوية فأن البلية هنا مزدوجة ، والمصيبة مضاعفة .

ومن تمام أسباب العلم واستكماله أن يبحث الباحث الموضوع الذى يدرسه من جميع وجوهه ، وأن يدرسه دراسة اتصال لا دراسة انعزال وانفصال ، وحبذا لو درس البيئة دراسة الخبير ، ورآها رأى العين، فأن البيئة عامل مهم لا يجوز إغفاله مثلا فى الحديث عن الإسلام وانتشاره ، أو فى الحديث عن النبى عليه السلام وظهور دعوته .

ولقد كتب بعض المستشرقين عن الإسلام ، ولم يعرفوه إلا من خلال الكتب والمصنفات ، وقد يكون بعض هذه الكتب مما لم يرتفع

إلى طبقة الأصول الأولى للإسلام ، أو قد يكون من تلك المصنفات المحشوة بالضلالات والسخافات التى تلصق بالإسلام زوراً وسفهاً ، أو قد تكون تلك المؤلفات من نتاج العقول الإسلامية التى تخلفت فى عصور الانحطاط .

ومعرفة الإسلام عن هذه الكتب هى معرفة خير منها الجهالة التامة ، لأنها لا تصور هذا الدين الحنيف على حقيقته ، ولا تعرضه كما أراده الله للإنسانية أن يكون ، ولكنها تعرضه من وجهات نظر سقيمة ، فينعكس ذلك على الإسلام وهو برىء منه .

وهنا أذكر مثالا ذكره المستشرق بودلى فى كتابه عن «الرسول محمد» فقد لاحظ الرجل أن الصورة التى رسمها بعض الذين ترجموا للنبى العربى باهتة منعزلة لا أعماق فيها ولا اكتمال لها . وندعه هنا يقول بعبارته : « وعلى ذلك فجميع هذه السير ينقصها شىء .. أنها غير كاملة ، وقد فشلت فى عرض موضوعها ن كل الزوايا ، فأن محمداً ليظهر عادة كصورة محددة على حائط أبيض ، وقد تكون الصورة روحية أو مادية أو مخيبة للآمال ، وأياً كانت الصورة فأنها منعزلة ، فمن النادر أن نجد الظلال والبيئة ، وإن الصورة لتبدو صورة باهتة ألصقت على ورق مقوى ملطخ . . . وما كان محمد سهلا منبسطاً ، فقد كانت له أبعاد كثيرة ، وما كان هناك شىء لا لون له فى حياته . . »

ومن أجل هذه المعرفة التامة بالأبعاد والأعماق والحدود والظلال والألوان سافر « بودلى » إلى بلاد العرب ليكتب عن محمد النبى العربى ، وليجد الوفاق — أو الخلاف — بين الحياة التى عاشها النبى فى الصحراء

والتى رويت فى كتب السيرة ، وبين الحياة حقيقة فى الصحراء بما تحمله من طوابع ومميزات ومؤثرات .

وتعرض بودلى لذلك الكاتب الأجنبى الذى ألف كتابا عن محمد ، فظهر من خلال ما كتبه أنه « لم يغادر نيوإنجلاند حيث كان يعمل راعى كنيسة ! فكانت آسيا وأفريقيا أبعد عنه من الجنة والنار ! وبرغم ذلك فقد سود ثلثمائة صفحة ، استعرض خلالها حياة الرسول استعراضا وثيقا . وعلى الرغم من الأسلوب المشرق ، ومعرفة الكتب المقدسة معرفة رائعة ، والإلمام باللغة العربية إلماما سطحيا ، فقد كشف عن جهل فاضح . . . فما كان يدرى كيف كان يعيش محمد ولا ما جاء به . »

ولقد كفانا « بودلى » مئونة الرد على ذلك الكاتب الذى جمع إلى الجهل والتعالم صفة الحقد الدفين الذى أوحى إليه أن ينعت النبى عليه السلام « بالدجال » . ويتساءل بودلى : لماذا لم يوضح لنا ذلك الكاتب « كيف أن الدجال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين إلى فتح مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة ، وكيف وهب للبشرية حضارة ما زالت قائمة حتى اليوم . »

وشر ما منيت به حملات التحامل على الإسلام هو ذلك الاتفاق المبيت ، والتدبير المحكم بين المستشرقين ، كأنهم أمام متهم لا بد أن يدينوه . وتلك النية المبيتة فى الحكم تفضى دائما إلى نتائج تكاد تكون واحدة ومتشابهة ... حتى لقد أصبحت التهم والأباطيل معزوفة مكرورة لكثرة ما توارد عليها من سهام الاتهام . . . وسنأتى لتلك التهم فى فصل مقبل ، ونرى مبلغ التوافق بينها ، وقيام الدعاوى عليها .

ومن حسن الحظ أن يفطن إلى ذلك التدبير المنظم والحملات المدبرة مستشرق أوربى نمسوى، كتب الله له أن يهتدى بنور الإسلام، فصارح إخوانه المسلمين بحقائق ليس من الجائز أن يغفلوا عنها، وقدم لهم أطيب ما فى صيدليته من دواء لعلاج أسباب التخلف عند المسلمين فى العصر الحديث، كاشفاً أن تخلفهم جاء منهم هم لا من الإسلام نفسه، ذلك الدين الذى يحمل عناصر القوة والحق والحياة.

فقد لاحظ «ليوبولد فايس» بحق «أن كره الأوربيين نحو الإسلام كره عميق الجذور، يقوم فى الأكثر على التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية. وقد لا تتقبل أوربة تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن، ومبنى على التفكير، إلا أنها حينما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفى للتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث فى البحث العلمى، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته..»

ولقد صور لنا المستشرق ليوبولد فايس محاكمة الأوربيين للإسلام بصورة فيها كثير من السخرية الطريفة اللاذعة، ليصل فى النهاية إلى النتيجة التى خرج بها من بحثه وهى أن أحكام المستشرقين على الإسلام هى أحكام مبيتة مدبرة، وأن بعض ما يبدو فى سير المحاكمة من عدالة

إنما هو للتعمية والتضليل .. وقد يكون هذا المقام ناقصاً لو لم نأت فيه بعبارة فايس فى هـذا الموضوع حيث يقول : « إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العـام الذى يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أ كثر من أن يطلب له مع شىء من الفتور اعتبار الأسباب المخففة . وعلى الجملة فأن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى.أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها . ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً . وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفى للشهود ، عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التى شهد بها الشهود الحاضرون ، ثم فصلوها من المتن ، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمى من سوء القصد ، من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضـية من وجهة نظر الجانب الآخر ، أى من قبل المسلمين أنفسهم .

وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام ، وللأمور الإسلامية تواجهنا فى جميع ما كتبه مستشرقو أوربة . »

وأعجب ما فى قضية حملات المستشرقين على الإسـلام أن موقفهم من البوذية ـــ وهى ديانة وثنية غير سماوية ـــ موقف متزن ، وأن موقفهم

من الإسلام — وهو دين سماوى موحد — يتخذ هذا اللون من التحامل . وقد تكون هناك بعض الفوارق والخلافات بين الدينين : دين هؤلاء المستشرقين ودين الإسلام ، ولكن هل تجيز هذه الفروق — مهما كانت — أن تدع للعدواة والبغضاء سبيلا ؟ وأن تحمل بعض المستشرقين على تصويب سهام نقدهم إلى الإسلام ، يعالنونه مرة ، ويرمونها فى الخفاء مرة ؟ !

الفصل الثانى

من آثار الحروب الصليبية

لقد صادفت الإسلام منذ اللحظة الأولى فى الدعوة عقبات لم يكن بد من تذليلها والصبر عليها ، حتى يكتب الله فى النهاية النصر لها . ولقد لقى النبي عليه السلام ضروباً من الأذى من المشركين والكفار واليهود والمنافقين . وكانت الدعوة الإسلامية سراً أول الأمر ، ثم أمر الله رسوله أن يجهر بما يؤمر ويعرض عن المشركين ، إلى أن جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى الإسلام أفواجاً .

وجاء عهد الفتوح الإسلامية ، وخاصة فى خلافة الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب ، فانتشر الإسلام فى أقطار مختلفة الأديان ما بين سماوى ووثنى ، وعز على الفرس أن يذهب الدين الجديد بدينهم وأمجادهم . وعز على الروم ، وهم أصحاب دين كتابى ، أن يذهب الإسلام بسلطانهم إذا ما تمت له السيادة والغلب ، وقد حاربوه فعلا فى أخريات عهد النبي وحاولوا أن يقفوه عند حد ، وأعقب ذلك غزوة تبوك التى خرج فيها النبي بنفسه ليرد عدواناً لم يكن يتوقعه ولم يكن له ما يسوغه . وكانت هذه الخصومة بين الروم والعرب المسلمين هى بداية ما أعقبها من خصومات وعداوات طوال .

وقد اتخذت الخصومة أشكالا مختلفة حسب طبيعة الأحوال ومقتضيات الظروف ، فتارة قد تكون مجادلة فى الإسلام ، وتارة تكون مناقشة فى القرآن ، وثالثة تكون نقصاً لقدر النبي عليه السلام . وقد تتخذ

الخصومة سبيلا اخر هو طريق التبشير بالمسيحية بين المسلمين .

ففى القرن الثالث عشر الميلادى نجد الراهب الأوربى «سان فرنشسكو» يغادر وطنه ، ويرحل إلى الشرق مبشراً بالمسيحية فى معسكر الملك الكامل الأيوبى بمدينة دمياط ، يدعوه إلى اعتناق المسيحية !

ونجد « ريموند لول » تقوم فى نفسه رغبة ملحة إلى التبشير بالمسيحية بين المسلمين ، ويعد ذلك رسالته فى الحياة ، بل يعده أعظم غايات الحياة عنده .

بل نجد البابا بيوس الثانى عقب سقوط القسطنطينية فى يد السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م يرسل رسالة إلى السلطان يدعوه فيها إلى اعتناق المسيحية ، ويوازن فى الرسالة بين الدينين .

وبدأ الجاحدون للإسلام من الأوربيين يتعلمون اللغة العربية ، لا حباً فيها ، ولكن ليتخذوها وسيلة إلى فهم القرآن ، وسلاحاً فى مناقشته . وقد أدركوا حينذاك أن المناقشة على علم ، أجدى وأقوى من المناقشة بغير سلاح ولا عدة .

والواقع أن هذه الحملة التى كانت ثمرة الحروب الصليبية قد أحسن تنظيمها ، وكانت أشبه بحركة مقاومة علمية للإسلام . وإذا كانت الحروب الصليبية قد آبت بما آبت به من الإخفاق بعد أن استمرت قرنين من الزمان ، ولم ينجح السلاح ولا القوة ولا العدد الكثير ولا الحملات المسلحة فى دعم الإمارات الصليبية اللاتينية التى أقامها المتدفقون من الغرب على بلاد العرب والإسلام ، فإن سلاحاً آخر غير الحديد والنار كانت تعده أوربا لمحاربة الإسلام ، ذلك هو سلاح المقاومة لهذا الدين بوسائل علمية

وعن طريق الهدم المعنوى فى حركة ظاهرها العلم والبحث ، وباطنها المكر والخبث . . . ويا لها من حركة مغرية المظاهر :

وبدىء فعلا فى إقامة كلية لاهوتية للرهبان فى مدينة ميرامار سنة ١٢٧٦م، وكانوا يتلقون فيها دروس اللغة العربية والدراسات المتصلة بتاريخ العرب، وكان القرآن الكريم بين أيديهم يتدارسونه ، ويتناقشون فيه . ولم يجدوا حينذاك حاجة إلى نسخة مترجمة منه إلى اللاتينيـة ، لأن دراستهم للعربية ومعرفتهم بها مكنتهم من دراسة القرآن فى لغته الأصلية .

والحق أن هذه المناقشات للقرآن الكريم لم تكن أول محاولة قام بهـا الأوربيون فى هذا السبيل ، فقد سبق فى سـنة ١١٢٢م أن قام الراهب بطرس الفنرابلى رئيس دير كولونيا بفرنسا بالدعوة إلى ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ، حتى يسهل على رجال الدين هناك مناقشته وإثارة الجدل حوله ، ونقده . وقد قام بهذه الترجمة راهبان هما روبرت وهرمان ، وأتماها فى سنة ١١٤٣م.وظلت هذه الترجمة مخطوطة فى عدة نسخ تتداولها الأديرة إلى أن تم طبعها فى مدينة بال بسويسرة سنة ١٥٤٣م .

ويشهد المستشرق ليوبولد فايس بأن الأوربيين فى خلال الحروب الصليبية وفى أعقابها قد شوهوا من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب . والحق أن مسئولية هؤلاء القوم خطيرة عن تلك الصورة الشائهة التى قدموا بها الإسلام إلى مواطنيهم ، فلقد استغلوا جهل الأوربيين ببلاد العرب والإسلام ، واستغلوا تلك العداوة التى رجع بهـا المحاربون الصليبيون إلى بلادهم ، وأخذوا ينفثون من سمومهم ما أملتـه عليهم شهواتهم وأحقادهم .

وما أصدق فايس وهو يقول بنص عبارته : « فى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوربيين من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيوانى ، وأنه تمسك بفروض شكلية ، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها ، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت ، وفى ذلك الحين أيضاً نبز الرسول محمد بقولهم « كلبى » .

وإذا كان ليوبولد فايس يروى هذه التهم مقرونة بالأسف لما وصل إليه الحقد الأوربى ضد الإسلام ، فقد يقال إنه يفعل ذلك دفاعاً عن الإسلام الذى هداه الله إليه وأنار به بصيرته ، ولكن هناك مستشرقون لم يسلموا ، ولكنهم كانوا دائماً على جانب الحق والنصفة حين يدعو إليهما داع .

وأبسط دواعى النصفة أن لا يقف المرء من خصمه موقف التحامل بلا دليل ، فى قضية لا يلقى فيها الكلام جزافاً بغير دليل . ومن هنا جاز للمنصفين من المستشرقين والمفكرين الأوربيين أن يشيروا إلى سخافة هذه التهم ، وأن يردوا عليها بما يضع الأمور فى نصابها ، وأن يصفوها بما هى خليقة به من نعوت الحقد والخرافة . حتى لنجد مستشرقاً منصفاً مثل إميل درمنجهم الذى كتب كتاباً فى سيرة الرسول يقول : « لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال ، وازدادت حدة . ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف . فمن البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقاراً ، من غير أن يكلفوا أنفسهم — فيما خلا جان داماسين — مؤونة دراسته ، ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمى الأندلس إلا بأسخف

المثالب ، فقد زعموا أن محمداً لص نياق ، وزعموه متهالكا على اللهو ، وزعموه ساحراً ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق ، بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً محنقاً أن لم ينتخب لكرسى البابوية . . . وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشرية .... وذهبت الأغنيات إلى حد أن جعلت محمداً صنما من ذهب ، وجعلت المساجد الإسلامية ملأى بالتماثيل والصور . . . »

ويمضى درمنجهم يعد هذه السخافات الصغيرة التى يستحى القلم الشريف والرأى الحصيف أن يسجلها حتى ولو كانت صادقة ، فما بالك وهى هراء لا يقوم عليه دليل من واقع ، ولا سند من تاريخ ، ولا دعامة من حق؟

ثم ما الذى يربحه هؤلاء المستشرقون من « أنهم يصفون النبى محمداً عليه السلام بأنه دجال ، وأن الإسلام مجموعة من الهرطقات كلها ، وأنه من عمل الشيطان، وأن المسلمين وحوش ، وأن القرآن نسيج السخافات » ؟ اللهم إنهم لم يربحوا لأنفسهم ولا لقومهم إلا عداوة قوم لا يحبون العدوان ، ولا الكذب والبهتان . ولم يربحوا لأنفسهم إلا الحقد الذى يغلى فى صدورهم ، والغيظ الذى يتميزون به .

إن الحق يقتضينا أن نفرق بين المستشرقين المبشرين ، والمستشرقين الباحثين . ولن تجد الجحود للإسلام والتحامل عليه إلا بين الفريق الأول ، فمنهم تتوقع كل حقد مقصود ، وكل نية خبيثة ، وقد كان أجمل الظن بهؤلاء أن تحميهم صفتهم الدينية من الوقوع فيما لا يرضاه دين ، وما لا يقبله عقل سليم ، ولكن لعلهم من هذه الناحية صبوا على الإسلام غضبهم ورموه بما هو منه براء . . .

على أننا لا نعدم أن نلتقى بنوع من المفكرين المسيحيين، لم تسلم المسيحية من عداوتهم، كما لم يسلم الإسلام من حملاتهم واتهاماتهم. ومن هذا الفريق الشاعر الفرنسى والفيلسوف الساخر فولتير، فقد اشتهر بعداوته لدينه كما اشتهر بمغالاته فى كراهيته للإسلام.

ومثل هؤلاء اللادينيين، لا يرضيهم دين، حتى ولو كان دين آبائهم الذى فطروا عليه، مع ما هو معروف من حرص الإنسان على دين الآباء والأجداد.

لم يكف الإسلام ما لقيه من حملات الصليبيين بالسلاح فى غارات لم يكن داع لها إلا الأحقاد وشفاء ما فى الصدور. والتقى الشرق بالغرب فى تلك الحملات لقاء عنيفاً أضاع كثيراً من الأنفس والجهود، وتأثر الشرق والغرب كل منهما بصاحبه فى هذا اللقاء المدجج، وخرجت أوربا المسيحية من هذه الحروب بفائدة أكثر مما خرج الشرق الإسلامى ... خرجت من ذلك الاتصال المباشر — على الرغم مما خسرته من الأنفس — بالعالم العربى بثمرات مادية كان يجب أن تقدرها، ورأوا من أخلاق المسلمين عن كثب ما محا الصور القاتمة التى كانت عنهم فى أذهانهم، وكان ذلك كفيلا بالتخفيف من حدة بغضائهم، ولكنهم — على الضد من ذلك — ازدادوا على الزمن عداوة وحقداً، وزادت ظروف المسلمين فى الأندلس من ذلك الحقد، فإذا هم يصورون الإسلام بما يشاء لهم الهوى، ويصورون المسلمين بما تمليه عليهم العداوة الدفينة، وتستحيل كل هذه العداوات إلى أفكار مسممة يودعونها كتبهم، فلا يفرقون فيها بين البحث والتعصب، ولا يميزون بين العلم والتحزب...

الفصل الثالث

إنصاف الإسلام

الاسلام والتسامح :

يخلط المتهمون للإسلام بالتعصب وفقدان روح التسامح فيه بين حق الدولة الإسلامية فى أن تفرض سلطانها الذى خوله الله إياها لصيانة كيانها ، وحفظ مصلحتها العليا ، وبين حق الأفراد والجماعات بما لا يتعارض مع سلطان الدولة . ولو أن هذه الحدود رسمت فى دقة ، واتبعت فى صرامة لما كان هناك محل للاتهام بالتعصب فى غير برهان .

وتاريخ الإسلام والمسلمين كله حافل بأروع الأمثلة على سماحة الإسلام ورحابته ، وهى رحابة تستند إلى أصل آخر من أصول الإسلام ، وهو الرحمة التى نادى القرآن بها ، وحث النبى عليها بقوله : « فبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ لهُمْ ، ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » .

والإسلام حتى فى علاقاته مع غير المسلمين لم يكن إلا المثل الأعلى للسماحة والرحابة التى لا تضيق حتى حين تدعو الظروف إلى الضيق والضجر .

وما ضاق الإسلام بحرية الفكر على حين ضاقت أوربا فى بعض عصورها بأحرار الفكر . وهذا المستشرق غوستاف لوبون يقرر أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولقد قامت الفلسفة الإسلامية فى الشرق وفى الأندلس ، ونمت وترعرعت ، ولم يضق بها الخلفاء والحكام على حين ضاق بها العامة

والدهماء ممن لا توافق هذه الآراء الجديدة موروث معتقداتهم ، ولم يلجأ الخلفاء إلى الشدة فى مقاومة حركات الإلحاد والزندقة إلا حين انقلبت حرية الفكر إلى سلاح خطر ، يهدد سلامة الدولة ، ويهدد كيانها . وهنا تقتضى رعاية المصلحة العليا للدولة أن تتدخل فى الأمر بما تراه العلاج الحاسم والدواء الناجع .

على أنه قد ثبت أن بعض المذاهب والنحل الغريبة عن الإسلام ، والتى تزعم الموالى من الفرس ومن إليهم من العجم حركة بثها بما يملكون من وسائل ، إنما هى حركات كان للسياسة فيها هدف بعيد ، وكانت تهدف إلى صدع فى جسم الدولة والخلافة ، ومن هنا حاربها الخلفاء والولاة قدر ما وسعهم الجهد ، ولم تكن مقاومتها نوعاً من مقاومة الحرية الفكرية ، وإنما كانت الواجب الذى لا واجب غيره لرعاية المصلحة العليا للدولة .

وحين تكون حرية الفكر — ولو باسم العلم — خطراً على سلامة الدولة وأمنها وكيانها ، فإن المصلحة تقضى بأن يحال بين أصحابها وبين هذه الحرية التى هى الفوضى وإساءة استعمال الحقوق .

ولعل ذلك ما يسوغ قبول مصرع « الحلاج » ، فقد ذكر إمام الحرمين أنه كان بينه وبين زعيم القرامطة اتفاق سرى على قلب نظام الحكم فى الدولة الإسلامية .

ولولا روح الإسلام السمحة ، وتسامحه الذى لا حدود له ما انتشر بهذه السرعة العجيبة فى كل بقعة من الأرض من مشرقها إلى مغربها . وهذه السرعة اللافتة للأنظار هى التى جعلت مستشرقاً منصفاً مثل غوستاف لوبون يقول منذ أكثر من سبعين عاماً : « والسهولة العجيبة التى ينتشر

بها القرآن فى العالم شاملة للنظر تماماً ، فالمسلم أينما مرّ ترك خلفه دينه ، وبلغ عدد أشياع النبى ملايين كثيرة فى البلاد التى دخلها العرب بقصد التجارة ، لا فاتحين . كبعض أجزاء الصين وأفريقية الوسطى ، وروسية . وتم اعتناق هذه الملايين للإسلام طوعاً ، لا كرهاً . ولم يُسمع أن الضرورة قضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التجار العرب المسلمين لمساعدتهم . ويتسع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء فى أى مكان كان» .

وهل هناك تسامح أكثر من أن يترك المسلمون لغيرهم فى البلاد التى فتحوها حرية مزاولة طقوس دينهم ، وحرية إبقاء كنائسهم وبيعهم ، وحرية البقاء على أديانهم الكتابية ، لا يرغمون على الخروج منها . ولا يمنعون من القيام بشعائرها ، ولا تصادر أدنى حقوقهم فى ذلك بأى نوع من أنواع المصادرة ؟

ولم يكن الإكراه على الدين فى يوم من الأيام وسيلة للإســـلام فى انتشاره ، وهذا هو القرآن الكريم ينص صراحة على أنه « لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ » . وهذه هى وقائع من تاريخ الإسلام والمسلمين تشهد شهادة واضحة ، وتنطق فى صراحة بأن المسلمين لم ينحرفوا عن ذلك الأصل المهم من أصول الإسلام قيد شعرة . وهذا موقف الخليفة عمر بن الخطاب من النصارى حين فتح المسلمون بيت المقدس ، وهذه شروط التسليم تشهد بتسامح الإسلام إلى أبعد الحدود ، حتى لقد استحق هذا التعليق المنصف من منصفى المستشرقين .

وللمستشرق بودلى مؤرخ حياة الرسول فى هذا المقام كلام لا بد من ذكره هنا ، فإنه أقطع فى البرهان على سماحة الإسلام وتسامحه من ناحية ،

وعلى افتراء من يتهمون الإسلام بالتعصب من ناحية أخرى. يقول بودلى: « إن الأمريكى أو الأوربى العادى الذى يحترف الدين يؤمن بأن أى دين خلاف المسيحية دين باطل . وحتى فى حظيرة المسيحية ، فإن الطوائف المختلفة تعتقد كل منها أن الأخرى على ضلال ، فهناك قليل من التسامح بين الكنيسة والمعبد ، ولا تسامح بين الكاتدرائية والمسجد ، والأمر ليس كذلك فى الإسلام . . . . وقد قال محمد ، لما كان يتحدث عن الشروط التى يعيش بها اليهود والنصارى فى أرض إسلامية ، ليعتبروا جزءاً من المجتمع: « من يسىء إلى يهودى أو نصرانى كنت خصمه » . وقد أكد محمد هذا التسامح بالنسبة إلى الدين الذى يشابه دينه كثيراً . وقد ضمن حرية العبادة للمسيحيين فى جميع المعاهدات التى عقدها معهم » .

ولما أصبح عمر خليفة واستولى على بيت المقدس أصدر أوامر مشددة بعدم الإضرار بالمسيحيين أو بكنائسهم . ولما غزا المسلمون أسبانيا فى القرن الثامن الميلادى احترم المسلمون كل شىء مسيحى . وقد استمر الحال على ذلك حتى زوال الحكم العربى من أوربا فى القرن الخامس عشر . ولم يستمر الحال على ذلك لما أصبح للمسيحيين اليد العليا ، فحل الاضطهاد الدينى محل التسامح الإسلامى .

والتسامح الإسلامى معروف مشهور عند المسيحيين وغير المسيحيين ممن تعاملوا مع المسلمين على اختلاف العصور . ولم يكن سلوك المسلمين فى معاملاتهم إلا مثالا للسماحة فى كل حادثة صغرت أم كبرت . وهذا التسامح كان أقوى سلاح سلمى اعتمد عليه المسلمون فى نشر الدعوة ، كما كان أقوى عامل فى اتساعها. ويعجب مستشرق أمريكى من انتشار الإسلام

بمثل تلك السرعة التى عرفها له التاريخ مع أن جنوده لم يكونوا إلا ناشريه، ولم يكن وراءهم دعاة ولا مبشرون يبشرون به، ويتساءل هذا المستشرق المنصف عما كان يحدث لو أنه كانت هناك إرساليات دينية إسلامية منظمة تبشر بالدين والقرآن كما كان يفعل المسيحيون الأولون؟.

ويقرر الرجل أنه لم يكن هناك دعاة عظام للإسلام بالمعنى المعروف فى الدعايات الواسعة العريضة التى تقوم بها الجماعات المنظمة، فقد كان الناس الذين يتعاملون مع أصحاب هذا الدين الجديد يحبونه، وكانوا يقبلون الدخول فيه.

نعم! لقد كان كل مسلم منذ العصور الأولى للفتح الإسلامى مثالا رائعاً لما يجب أن يكون عليه الإنسان المثالى الكامل، وكان كل جندى فى الجيوش الإسلامية الذاهبة للفتح دعاية فى نفسه لدينه. فما الحاجة إذن إلى الدعايات المنظمة ووسائل التبشير؟؟

ولقد عُرف عند المنصفين من الأوربيين تسامح المسلمين حتى اطمأنوا إلى كل ما يصدر عنهم، وأصبحوا على ثقة مما يقولون ويفعلون — على الرغم مما كان يبثه المغرضون من أكاذيب؛ ووجدنا كاتباً أمريكياً أيضاً يثق بكتاب لو يكتبه مسلم عن القديس بطرس من حواريى المسيح عيسى بن مريم، ويقول إن هذه السيرة التى يخطها قلم مسلم ستكون بدون شك أكثر تسامحاً ونصفة من أغلبية ما نشره المسيحيون عن محمد.

نعم! إلى مثل هذا الحد من الثقة فى تسامح الإسلام والمسلمين يذهب كل منصف من الغربيين ما دام قد أزاح عن عينيه الغشاوة التى يعمى بها الغرض والتعصب عيون الباحثين...

الاسلام وازالة الفوارق :

لن نطيل الوقوف هنا أمام موضوع يتصل أوثق اتصال بالديمقراطية فى الإسلام ، ولن نحاول أن نستخرج من الشواهد ووقائع الأحوال ما يؤيد هذه القضية التى قد يكون كل كلام فيها مكرراً معاداً . فإن الصلاة الجامعة والحج هما فى أركانهما مظهر رائع للديمقراطية الإسلامية . حيث يقف المسلم إلى جوار أخيه المسلم فى صف واحد خلف إمام واحد يستقبلون فى خشوع تام قبلة واحدة ، ويتجهون إلى إله واحد ، هو الذى فطرهم ، وسخر لهم كل ما فى السموات والأرض .

ولقد ساوى الإسلام بين المسلم والمسلم ، ولم يجعل بينهما مقياساً للمفاضلة والرجحان إلا التقوى التى يمتاز بها إنسان من إنسان . فلا شرف الأصول ، ولا المال ، ولا قوة الجسم ، ولا المركز الاجتماعى ولا غير ذلك من أعراض الفوارق بين الأفراد والطبقات هى ميزان التفاضل . وفيم التفاضل والناس جميعاً من أب واحد وأم واحدة . هما آدم وحواء؟ وهذه النسبة المشتركة الدائمة الموصولة أبد الآبدين بين الأجيال المتعاقبة هى السبب الجوهرى البسيط لهذه المساواة . وقد أكد القرآن هذا المعنى الجميل بقوله تعالى :

« يأيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقبائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ » .

وحرص الإسلام مرة أخرى — فى أكثر من آية قرآنية — على توكيد معنى الأخوة التى تحمل معنى المساواة من ناحية ، كما تحمل معنى

الوشيجة القوية من ناحية أخرى . فني القرآن بضع آيات تؤكد معنى الأخوة ، فوق ما في الآية السابقة من معنى المساواة . ففي سورة الحجرات: « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » . وفي سورة آل عمران : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » . وفي سورة التوبة : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

فالشخص غير المسلم بمجرد اعتناقه الإسلام يصبح أخاً للمسلم ، له ما له وعليه ما عليه ، بل يصبح أخاً للمسلمين جميعاً في كل أرض ، بغض النظر عما يفرق بين الرجل والرجل من الألوان والأجناس والطبقات .

وهذه الأخوة تقرر للمسلم حقاً معلوما في عنق صاحبه ، كما تفرض عليه من الواجبات ما يقوم به الاعتدال في ميزان الأخذ والعطاء . كما أن المساواة الإسلامية تسوى بين المسلمين فيما فرض عليهم من تكاليف ، وأبيح لهم من مباحات ، وحظر عليهم من محظورات ، وتسوى بينهم في الثواب والعقاب . فلا رجحان لهذا على ذاك ، ولا نقص من هذا لذاك ، ولكنه قسطاس مستقيم . حتى النبي عليه السلام لم يختص في العبادات مثلا بنصيب مخفف ، أو إعفاء له .

وقد حاول الجاحدون من الغربيين أن يلتمسوا في بعض الحالات الخاصة ما يسوغ هجومهم على الإسلام من ناحية المساواة . وقد وجدوا

فى التخصيص لنساء النبى مجالا للكلام والاتهام ، ونسوا أن آيات سورة الأحزاب وقوله تعالى : « يَا نِساء النَّبِي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاء » إنما كانت تكريماً من الله لأمهات المؤمنين ، وتشريفاً لأقدارهن ، وهى حالة خاصة لا تقدح مطلقاً فى تقرير حقوق المساواة فى الإسلام .

على أن مثل هذه الاتهامات الرخيصة لا تشوه من جلال المعنى الإنسانى فى الديمقراطية الإسلامية ، ويكفى أن نجد من المستشرقين المنصفين من حرص على إبراز هذه الحقيقة حين تعرض للكتابة عن المساواة فى الإسلام . فنجد الباحث الأمريكى فيليب أيرلاند من كبار رجال الخارجية الأمريكية يقول : « يبدو من النظرة الأولى أنه توجد ظروف ملائمة جداً للديمقراطية فى داخل الإسلام . فإن الإسلام كان أعظم الديانات توفيقاً فى إزالة فوارق الجنس واللون والقومية » .

ويستشهد هذا الباحث الأمريكى بما قاله المستشرق البريطانى الأستاذ جب : « يتساوى أحقر مسلم مع الخليفة أو قاضى القضاة ، والسلطة النهائية ترجع إلى إجماع الشعب » .

وكلام فيليب أيرلاند عن ديمقراطية الإسلام كحقيقة واقعة كلام صحيح لا غبار عليه ولا مغمز فيه ، إلا أنه حين يرد هذه الروح الديمقراطية إلى عرب الصحراء وإلى الكيان الاجتماعى للصحراء بنظامه وتقاليده المعروفة فى الجاهلية فإنه يحاول أن يجرد الإسلام من فضيلة ليردها إلى عصر ما قبل الإسلام ! كأنه بذلك يستكثر على الإسلام — مجرداً — أن يكون له فضل يستقل به وحده من غير اعتماد على أصول أخرى ... وقد

قالها الرجل فعلا فى صراحة تدعو إلى العجب من هذا الاجتراء حين قال :
« . . . فإن النظام الديمقراطى بين عرب الصحراء نشأ عن الكيان الاجتماعى للصحراء ، فهو عربى لا إسلامى ، والإسلام لا يوجبه . . . »

أما المستشرق بودلى مؤرخ سيرة الرسول فقد كان أكثر إنصافا ، وأقل مغمزاً للإسلام حين قال : « وليس هناك أى عائق لونى للمسلم ، فلا يهم أكان المؤمن أبيض أو أسود أو أصفر ، فالجميع يعاملون على قدم المساواة » .

« وقضى محمد على فروق الطبقات واللون والأجناس . والحج أعظم شاهد على ديمقراطية الإسلام ، فهناك يجتمع المسلمون : الأوربيون والآسيويون ، والأفريقيون ، والصعاليك والأمراء ، والتجار والمقاتلون فى نفس الإزار البسيط الذى كان محمد وأتباعه يرتدونه فى حجة الوداع عام ٦٣٢ م . إنهم جميعاً يتناولون نفس الطعام ، ويتقاسمون نفس الخيام ، ويعاملون دون تمييز . سواءاً أجاءوا من مرافىء «سيراليون» أم من قصر نظام حيدر أباد . . . إنهم جميعاً مسلمون . إن هذا لهو الميزة الكافية . ولهم فى مؤسس هذا الدين أسوة ، فقد حكم جزيرة العرب ، ولكن ما كان يجد ما يضيره فى تناوله الطعام وعبداً من العبدان ، وفى مشاركته ابن السبيل ثمرة من الثمرات . »

« أكان فى مقدور رجل — ما لم يكن ملهماً — أن يأتى إلى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية ؟ »

ولو وعى الغربيون هذا الكلام ما قامت فيهم تلك العصبية البغيضة ضد الأجناس والألوان ، حتى لقد قامت فى بلد مثل بلد بودلى الذى

يقول هذا الكلام حركة ضد الملونين ، ولا نزال إلى اليوم نقرأ بعض ما تحمله الأنباء من موقف الذين يتشدقون بالحرية والديمقراطية ضد غيرهم من أصحاب الألوان الذين يعاملونهم معاملة لاتليق بكرامة الإنسان .

ولقد أنصف المستشرق المسلم النمسوى فايس حين قال فى هذا المقام : « لقد أبطل الإسلام العصبية العرقية — الحقد الجنسى — وشق الطريق إلى الإخاء الإنسانى وإلى المساواة . ولكن المدنية الغربية لاتزال عاجزة عن أن تنظر إلى ما وراء ذلك الأفق الضيق من العداء الجنسى والقومى . إن الإسلام لم يعرف الطبقات الاجتماعية ، ولا حروب تلك الطبقات فى مجتمعه . ولكن التاريخ الأوربى كله — منذ أيام اليونان والرومان — مملوء بالكفاح فيما بين الطبقات ، وبالعداء الاجتماعى » .

المثالية مع البساطة فى الاسلام :

لاحظ كثير من الذين كتبوا عن نبي الإسلام من الغربيين أو ترجموا لحياته أن البساطة التامة السمحة المحببة إلى كل نفس كانت تجلل حياة الرسول الكريم . فما كان فى سلوكه الشخصى ، أو فى علاقاته مع الناس أو مع أهل بيته المطهرين إلا مثالا للبساطة الخالية من تلك العقد التى تفرض على أصحابها نوعاً خاصاً من السلوك يصدم الجماعات والأفراد على السواء .

ولقد أوحى الله إليه فى سورة « ص » أن يقول : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » . وهذه تزكية إلهية من الله لنبيه ، وشهادة لها قدرها وجلالها .

ولم تكن بساطة النبي عليه السلام إلا مظهراً رائعاً من مظاهر البساطة في الإسلام كله ، عقيدة وفكرة وعملا وعبادة .

ومن هنا كانت بساطة الإسلام ظاهرة لفتت أنظار المنصفين من الغربيين . فلم يحجبها التعصب الأعمى عن عيون الذين ينشدون الحق منهم ، أو الذين لا يرون في إخفاء الحق الواضح الجلي فضلا ولا شرفاً ، بل يرون في ذلك انتقاصاً لموازين العدل والإنصاف .

والحق أنه لولا هذه البساطة في الإسلام ما أتيح له أن ينتشر في بقاع الأرض بتلك السهولة والسرعة ، مع ما هو مقرر ومعلوم من أن المبادىء والمذاهب الجديدة تحتاج إلى كفاح طويل ، وإلى زمن طويل في سبيل نشرها وإقرارها .

ولكن الإسلام كان على غير ما يعرفه الناس عن انتشار المذاهب ، فقد وجد في صدور الأمم المفتوحة صدوراً رحبة سريعة إلى استجابة دعوته ، وتلبية ندائه ، مختارين غير مكرهين ولا مضطهدين . فقد كانت لهم الحرية المطلقة — المؤيدة بأوثق الضمانات وأوكد العهود — في أن يختاروا الإسلام ، أو أن يبقوا على دين آبائهم مع دفع جزية لقاء رعاية مصالحهم في ظل الجماعة الإسلامية الجديدة . وكانت تضمن لهم في حالة البقاء على دينهم أوثق الضمانات ، ولكنهم مع ذلك كانوا يدخلون في دين الله أفواجاً .

والسر في ذلك لا يحتاج أن يكون سراً ... إنه تلك البساطة السمحة المحببة التي لا يشوهها تعقيد ولا تركيب ... وما أصدق المستشرق

الأمريكى بودلى وهو يقول فى هذا الصدد : « والبساطة المتناهية إحدى قوى الإسلام الأساسية ، وإنها لإحدى أسباب انتشاره الملحوظ » .

نعم ! إن السر فى هذه السرعة العجيبة فى اكتساح هذا الدين لما صادفه من أديان كتابية وغير كتابية يكمن فى تلك البساطة التى شهدها أهل البلاد المفتوحة بعيونهم ، ورأوها على حقيقتها بلا تعمل ولا تصنع ، ورأوا أفراد الجيش العربى المسلم الفاتح — من كبيرهم إلى صغيرهم — يبدون على حالة من البساطة فى كل شىء : حين يصلون ، وحين يصومون ، وحين يؤمنون بإله واحد ، فى فكرة بسيطة للتوحيد تقبلها كل نفس — مهما كان مبلغها من العلم والفلسفة — لأنها فكرة لم تعقدها المذاهب ، ولم يعقدها رجال الدين الذين يهتمون دائماً بتعقيد البسائط لاعتبارات خاصة فى نفوسهم . . .

والعبادة فى الإسلام عمل بسيط لا تصحبه مظاهر الفخامة والتعقيد والتهويل ، لأنها فى أصلها وسيلة للتقرب إلى الله ، وصلة بين العبد وربه ، وليست معرضاً للإراءة والإظهار .

وهنا نترك للمستشرق الأمريكى بودلى مرة ثانية الحديث عن ذلك بقوله : « لو أن القديس بطرس عاد إلى روما لامتلأ عجباً من الطقوس الفخمة ، وملابس الكهنوت المزركشة ، والموسيقى الغريبة فى المعبد المقرونة باسمه. ولن يعيد البخور والصور والرقَى إلى ذهنه أى شىء من تعاليم سيده المسيح . ولكن إذا ما عاد محمد إلى أى مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنزبار ، فأنه سيجد نفس الشعائر البسيطة التى كانت تقام فى مسجده فى المدينة ، الذى كان من الآجر وجذوع الشجر » .

والحق يقتضينا هنا أن نقول إن بعض ذوى السلطان من ملوك المسلمين حاولوا أن يضفوا على الإسلام نوعاً من المظاهر الفخمة التى ليست من طبيعة العرب والإسلام فى شىء ، مقلدين بذلك ملوك أوربا على سبيل التظاهر والتكاثر ، حتى ازدحمت المساجد الإسلامية بألوان من البذخ والترف والفخامة لم يألفها الإسلام ، ولكن أصوات المصلحين المسلمين لم تسكت عن المناداة فى كل عصر بالعودة بالإسلام إلى تلك البساطة التى كانت كلمة السر فى سرعة انتشاره وغزوه للقلوب . وارتفعت أصوات قوية مثل صوت ابن تيمية ، وابن القيم ، ومحمد بن عبد الوهاب من زعماء حركة التطهير فى الإسلام .

ولم تكن البساطة وحدها هى السبب فى سرعة انتشار الإسلام ، فقد كان بجانبها مجموعة من الفضائل العالية حببت الناس فى كل أرض لاعتناق هذا الدين الجديد ، ولكن لا شك أن هذه البساطة المتناهية كانت من أقوى العوامل الفعالة فى اجتذاب النفوس ، فالتعقيد والتفخيم منفر ، وقد يكون مخيفاً فى أكثر الأحوال ، وقد يلقى بذوراً من عدم الثقة والاطمئنان فى النفوس . أما البساطة فهى تجذب وتعجب وتروق ، ولا تنفر أبداً . . إنها تدعو إلى الثقة والطمأنينة .

وما أصدق المستشرق المنصف غوستاف لوبون وهو يقول فى هذا الصدد : « . . وهنالك أسباب أخر غير تسامح العرب وحلمهم ساعدت على انتشار دينهم ونظمهم المشتقة منه . وذلك أن هذه النظم كانت من البساطة — فى الحقيقة — ما لاءمت معه احتياجات طبقات الأهلين الوسطى البسيطة أيضاً . وإذا حدث — اتفاقاً — أن كانت هذه النظم غير ملائمة

لهذه الاحتياجات ، عدلها العرب كما تقضى به الضرورة . وبهذا نفسر السرفى اختلاف نظم المسلمين فى بلاد الهند ، وفارس ، وجزيرة العرب ، وإفريقية ، ومصر ، اختلافاً كبيراً فى بعض الأحيان ، مع أن القرآن واحد » .

ولقد أحسن لوبون فى شطر من القضية ، وصور شطرها الآخر بما قد يلتبس فيه الحق على الذين يطلبون وجه الحق دائماً . فالقرآن نعم واحد ، ولكن استنباط الأحكام الشرعية من هذا الأصل للإسلام أو من سنة النبي عليه السلام ، قد يختلف بين فقيه وفقيه ، وبين علماء بلد وعلماء بلد آخر . ولن يقدح ذلك فى الإسلام شيئاً ، كما لن يقدح فى صحة هذه الاستنباطات التى تبنى على الاجتهاد والنظر والفحص مع عدم الخروج عن الأصل الذى استنبطت منه .

وكل خلاف نتج عن هذا الاستنباط ليس ذا خطر ، ما دام لا يمس أصل العقيدة وجوهرها ، بل هو فى الحق آية واضحة على الحرية الفكرية فى الإسلام وعدم الجمود فيه . فإن النصوص القرآنية والسنية قد تتناهى — مهما كثر عددها — ولكن الحوادث والمعاملات التى يقتضيها تنوع الحياة اليومية وتطورها لا تقف عند حد . ومن هنا كان القياس ، وكان التعرف والنظر من الفقهاء والعلماء ، فاختلفت بذلك طرق التعرف إلى الأحكام ، واختلفت أيضاً تبعاً لتقدير العلماء لصحة الأحاديث والآثار والأخبار التى رويت عن الصحابة .

ومن حسن الحظ أن هذا الاختلاف الذى لا ننكره ، ولا يستقيم فى العقل السليم إنكاره ، لم يمس الدين فى صلبه ، ولا العقيدة فى أصلها . فما اختلف المسلمون على وحدانية الله ، وما اختلفوا على رسالة محمد

ولا نبوته ، ولا اختلفوا على أن القرآن من عند الله ، ولا اختلفوا فى أصول العبادات ، ولا فى تبيان الحلال والحرام ، ولكن الاختلاف كان فى الأحكام والاستنباطات تبعاً لاختلاف الأدلة وتقدير الفقهاء ، كالاختلاف على مسح الرأس فى الوضوء : أهو لربع الرأس ، أم لكله ، أم لبعض شعرات . . . وهو اختلاف كما ترى لا يتناول كياناً ، ولا يهدم بنياناً .

تلك هى قضية البساطة فى الإسلام . أما بساطة النبى نفسه عليه السلام ، فيكفى أن نسجل هنا بعض ما قاله بودلى الأمريكى : « كانت حياة محمد بسيطة كحياة السيد المسيح . . . . وكان طعام محمد الأساسى الثريد والتمر واللبن ، وكان يتناول أحياناً حساء ضأن وخضر ، وربما شرب بعض العسل ، وكان غالباً ما يقصر طعامه على التمر واللبن ، وأياً كان الطعام فقد كان يتناوله على حصير فوق الأرض ، وكانت ثيابه بسيطة كطعامه ، فكان يرتدى فوق جسمه مباشرة قميصاً له أكمام من الصوف الخشن أو القطن ، وفوقه بردة ، وفوق رأسه عمامة ضخمة لفت باعتناء ، وفى قدميه نعلان من الجلد » .

ومهما كان سبب سلوك محمد هذه الطريقة من العيش فقد جعل من الواضح — من بادىء الأمر — أن الإسلام ، نظرياً وعملياً ، يقوم على البساطة ، وكان دائماً يؤكد هذه الحقيقة ، فكان يحض أتباعه دواماً على أن يجعلوا هذه الفكرة حاضرة أبداً فى أذهانهم .

وهذه البساطة البالغة أقصى حد فى عقيدة الإسلام وفى عباداته وشعائره ، والمتمثلة بأجلى بيان فى النبى عليه السلام كانت تساندها

وتوازيها رفعة مثالية لم يرق إليها أى مثال رفيع مما شاهده الناس على مر العصور .

وهذا المثل الأعلى الرفيع فى الإسلام ، هو عامل مهم آخر من عوامل انتشاره وسرعة دخوله إلى القلوب والعقول . فقد كان العرب فى جزيرتهم حائرين يقلبون وجوههم فى السماء باحثين عن مثل أعلى ينشدونه ، ويستهدون به طريق حيـــاتهم . وكان منهم وثنيون مشركون وصابئة ومجوس ونصارى ويهود . وكانت عبادة الأصنام هى الدين الغالب على جزيرتهم . فما أشد ما كان تشوقهم إلى « شىء » يوحد آمالهم وأهدافهم وغاياتهم من الحياة . ولم يطل بهم الانتظار لهذا « الشىء » . . . فقد جاء الإسلام وفيه تحقيق لـكل مطامحهم ، وسرعان ما أثبت هذا الدين الجديد أنه يحقق آمال الإنسانية جميعاً .

وهنا نلتقى مع المستشرق الفرنسى غوستاف لوبون لنراه يقول فى وعى نافذ ، وإنصاف تام : « لقد منح هذا الدين ـ يعنى الإسلام ـ ما كانت تحتاج إليه أمم من المثل الأعلى المشترك الذى اكتسبوا به من الحمية ما استعدوا للتضحية بأنفسهم فى سبيله .

« وقد أتيح لى أن أذكر غير مرة أن عبادة أى مثل عالٍ من أقوى العوامل فى تطور المجتمعات البشرية . ويكفى أن يكون المثل الأعلى قوياً ، ليمنح الأمة مشـاعر مشتركة ، وآمالا مشتركة ، وإيماناً متيناً يندفع به كل واحد من أبنائها فى التضحية بنفسه فى سبيل نصره . وكانت عظمة روما مثل الرومان الأعلى . وكان نيل حياة أخرى يجتنى منها أطايب النعم مثل النصارى الأعلى . وتخيل الرجل العصرى آلهة جدداً يقيم لهم تماثيـل مع

أنهم وهميون كقدماء الآلهة لا ريب. وذلك مع كفاية تأثيرهم الطيب لوقاية مجتمعاتنا القديمة من الزوال حيناً من الزمن، وليس التاريخ سوى رواية للحوادث التي قام بها الناس انتصاراً لمثل عالٍ. ولولا تأثير المثل العليا ما تمدن الإنسان ولظل في دور الهمجية. ويبدأ دور انحطاط الأمة حينما تعود عاطلة من مثل عالٍ محترم يستعد كل واحد من أبنائها لوقف نفسه عليه.

والمثل الأعلى الذي أبدعه محمد ديني محض، والدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم دين اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية».

الضمير في الاسلام :

إذا كان تجرد بعض الحاقدين على الإسلام من «الضمير» قد دفعهم دفعاً إلى إنكار وجود «الضمير» في الإسلام، فأنه ما زالت هناك بقية أمل بالضمير العلمي الذي يعز عليه أن تطمس الحقائق طمساً بلا دليل. وآفة المستشرقين أنهم متأثرون بعوامل وانفعالات خاصة أكثر مما هم متأثرون بالحقائق العلمية خاضعون لقوانينها، ولذلك لا نجد أحكامهم جميعاً على سواء، وقد تجد للواحد منهم حكما سوياً في قضية من قضايا الإسلام، على حين تجد له أحكاماً غير مستوية في قضايا أخر. ولو أن الواحد منهم اتبع المنهج العلمي وحده، وهدف إلى الحقيقة العلمية وحدها لما اضطرب الميزان بين يديه، حتى تراه في أكثر حالاته مجحفاً، وتراه في القلة النادرة منصفاً.

على أننا نرحب بذلك الإنصاف حتى ولو جاء عفواً . وقد كان لمستشرق يهودى مثل جولد تسيهر مغامز ومطاعن فى الإسلام لا تقف عند حد ، وقد شحن بها كتابه القيم « العقيدة والشريعة فى الإسلام » وهو كتاب فيه من الجهد والبحث ما لا يحمل منصفاً على غمط فضله ، بعد طرح المغامز منه .

ولقد وقف هذا الرجل موقفاً يحمد من مسألة إنكار وجود « الضمير الأخلاقى » فى الإسلام . فقد جاء فى كتاب تزدال Tisdal : « ديانة الهلال » الذى نشرته جمعية ترقية المعارف المسيحية بلندن سنة ١٩٠٦ أن الإسلام ليس فيه وجود لفكرة الضمير ، وأن لفظة الضمير لم يرد فى لغة الإسلام مايدل عليها دلالة واضحة معينة ، وندع جولد تسيهر يرد على هذا الزعم رداً فيه من النصفة ما لا يجوز إغفاله . قال : « وقد حاول بعض الباحثين التدليل على قلة القيمة الدينية والأخلاقية للإسلام ، بالاستناد إلى حجج ترجع إلى اللغة التى ظهرت بها تعاليمه . فقد قالوا مثلا إن الإسلام خال من الفكرة الأخلاقية التى نسميها الضمير ، محاولين أن يسندوا هذا الزعم بأن اللغة العربية نفسها وسائر اللغات الإسلامية خالية من كلمة خاصة للتعبير تعبيراً دقيقاً عما نقصده من كلمة « ضمير » . وأمثال هذه الاستنتاجات يمكن أن تقال بسهولة فى غير هذا من الميادين أو الموضوعات . إلا أنه أصبح من الثابت أن من الأحكام المبتسرة التسليم بأن كلمة تكون الشاهد الوحيد الجدير بالثقة على وجود فكرة أو عدم وجودها . . . إن النقص أو الثغرة فى اللغة لا يفترض حتما نفس النقص فى القلب . . . فلو كان الأمر كذلك ، كان لنا أن ندعى بحق بأن شعراء « الفيدا » كانوا يجهلون عاطفة العرفان بالجميل ، لأن كلمة « شكر »

غريبة عن اللغة الفيدية . وفى القرن التاسع فند الجاحظ العلامة العربى ملاحظة أحد أصدقائه من هواة الفنون الجميلة والأدب بأن عدم وجود كلمة « الجود » فى لغة الروم يمكن أن يتخذ دليلا على بخل الروم المطبوع فيهم . كما انتقد كذلك الذين أخذوا من فقدان كلمة « نصيحة » فى اللغة الفارسية دليلا أكيداً على الغش الغريزى فى هذا الشعب .

« من أجل ذلك حرى بنا أن نجعل للحكم أو المثل الأخلاقية وللمبادىء التى ينعكس عنها الفهم أو الإدراك الأخلاقى — كما هو الأمر فى الإسلام — قوة أعظم من تلك التى نعزوها لكلمة أو تعبير فنى . وفى كثير من تلك الحكم أو المثل والمبادىء إشارة إلى كلمة «ضمير» . إن بين الأربعين حديثاً النووية — التى من المعروف أنها تلخص أهم المعارف الدينية للمسلم الكامل — الحديث السابع والعشرين الآتى ، وهو مستخلص من أعظم كتب الحديث : « عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس» . وقال وابصة بن معبد : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : جئت تسأل عن البر ؟ قلت نعم ، قال : استفت قلبك . البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر . وإن أفتاك الناس وأفتوك » . يريد : « استفت قلبك ، فالذى يسبب اضطرابه يجب أن تنتهى عنه » . والرواية الإسلامية تعلم بواسطة آدم قبل موته نفس هذه التعاليم إلى أبنائه ، إذ تنتهى هكذا : « عند ما اقتربت من الشجرة المحرمة شعرت باضطراب فى قلبي » . ومعنى هذا أن ضميرى اضطرب .

« إذن علينا — إن أردنا أن نكون عادلين بالنسبة إلى الإسلام — أن نوافق على أنه يوجد فى تعاليمه قوة فعالة متجهة نحو الخير ، وأن الحياة — طبقاً لتعاليم هذه القوة — يمكن أن تكون حياة طيبة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية . .

هذه التعاليم تتطلب رحمة جميع خلق الله ، والأمانة فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، والمحبة والإخلاص ، وقمع الغرائز الأثرة ، كما تتطلب سائر الفضائل التى أخذها الإسلام عن الأديان السابقة ، والتى يعترف محمد بأنبيائها أساتذة له . ونتيجة هذا كله أن المسلم الصالح يحيا حياة متفقة مع أدق ما تتطلبه الأخلاق » .

الفصل الرابع

بين الدنيا والآخرة — الإسلام والعلم — الإسلام والمجتمع الجبرية فى الإسلام — الإسلام والسلام

بين الروحية والمادية :

هل يدعو القرآن إلى زوحية مطلقة مجردة عن المصلحة الدنيوية ، أم يدعو إلى مادية مطلقة مجردة من صفاء الروحية وشفافيتها ؟

إن أجمل ما فى الإسلام هو ذلك القدر الوسط ، أو تلك الحالة « القوام » بين طرفين ، فلا طغيان لطرف على طرف ، ولا رجحان لحالة على حالة ، وإنما العبرة باستواء القصد ، واعتدال الحد .

وحين يدعو الإسلام إلى ابتغاء الآخرة ، فإنه يحتم على المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا . قال تعالى : « وابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا » . وهذا التوفيق بين طرفين قد يكونان على النقيض هو سر القوة الكامنة فى الإسلام ، تلك القوة التى اندفع بها المسلمون الأولون إلى أبعد الغايات . فلم يقف فى سبيلهم شىء ، ولم تذهب تلك القوة عنهم إلا حين أضاعوا ميزان الاعتدال بين مطالب الدنيا ومقتضيات الآخرة ، أو بين دوافع المادة ، ولذائذ الروح .

ولقد أدت ظروف بالمسلمين إلى أن تفسر لهم بعض آيات الكتاب الكريم على غير وجهها الصحيح ، بل قد فسرت تعاليم الإسلام فى بعض العصور تبعاً لروح ذلك العصر ، وما طرأ عليه من ضعف السلطان العربى وزواله . وانساق المسلمون بحسن نية وراء تأويلات ما أنزل الله بها من

سلطان ، وكان لذلك أثره فى إفشاء روح الجمود والتواكل والفشل والخمول بين المسلمين . حتى لقد دست أحاديث مكذوبة ، وملئت أدعية وأوراد ، وحشدت مواعظ ورقائق بما أعان على فشو الاستسلام والدعة والبلادة والمسكنة والزهد المطلق فى الحياة ، والإعراض كلية عن الدنيا والاتجاه إلى الآخرة ، لا فى وعى المسلمين الأولين ويقظتهم وعرفانهم لقيمة الإنسان فى الحياة وتقدير رسالته فيها ، بل فى بلادة وبلاهة وتخاذل وإهدار لقيمة الحياة والأحياء .

وهكذا مرت بالمسلمين فترات طويلة من التأخر والجمود ، لأنهم انصرفوا عما فى دينهم وكتابهم من معانى القوة والكفاح فى الحياة ، واستسلموا لسبات طويل وجد أعداؤهم فيه فرصة مواتية لإطالة أمده ، ومضاعفة شدته ، حتى يخلو لهم الميدان ، فيطلبوا وحدهم النزال والطعان !

والإسلام براء من هذه الاتكالية — أو التواكلية — التى جردت المسلمين من كل معانى القوة الصالحة للحياة . وقد جمع القرآن الكريم بين العزم والتوكل فى قوله تعالى : « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » . فالعزم والتصميم والإرادة هى العدة أولا ، وبعدها تفعل الأقدار ما تشاء .

والاعتدال والقصد فى التوفيق بين مطالب الدنيا والآخرة هو الموقف الذى لا يجوز فيه الخلط بين الإسراف فى إحدى الناحيتين . فلقد نبه القرآن الناس إلى ما فى الأرض والبحر من كنوز ، وأمرهم أن يمشوا فى مناكب الأرض ويأكلوا من رزقها . وهو حين يلفتهم إلى ذلك لم ينس أن ينبههم إلى ما فى الآخرة من نعيم مقيم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار .

ومثل هذا التوافق والتنسيق بين عاجل الطيبات فى الدنيا ، وآجل الثواب فى الآخرة هو المعنى الدائم الذى تكرر فى القرآن فى غير موضع ، والذى أخطأ المسلمون إدراكه حين ولت عنهم أسباب القوة فى الحياة ، فأعرضوا عن الدنيا إعراضاً تاماً ، وتركوها لغيرهم من طلاب العزة فى الحياة ، وآمنوا بأن الدنيا — كما وصفها القرآن — « لهو ولعب » و « متاع الغرور » وغفلوا عن حكمة الله فى تهوين شأن الدنيا إلى هذا الحد ، حتى لا يتهالك عليها متهالك ، فينسى ما عليه لآخرته ، وهنا يضيع التوازن الواجب ، والتوفيق المطلوب .

وليس من أصول الإسلام التى قام عليها ودعا إليها تجرد عن الدنيا وتركها ، وانقطاع إلى الآخرة . ولم يغفل الإسلام حق البدن على صاحبه، ولم يجعل ذلك الحق فيما يتعلق بالطعام والشراب وكل ما به قوام الجسم وملاك الصحة فحسب ، ولكنه جعله فيما يتعلق حتى بما قد يعد من الكماليات . فأحل زينة الله التى أخرجها لعباده ، وتساءل سؤال المنكر المتعجب عمن حرم تلك الزينة . وأمر الناس أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وأباح لهم الطيبات من الرزق : (يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) . (يأَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً) . (يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) . (يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ) . (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيها جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ،

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

ولقد أدرك المنصفون من الغربيين هذه الحقيقة عن الإسلام ، وأدركها أصح إدراك منهم من كتب الله له أن يدخل الإسلام مثل ليوبولد فايس الذى يقول فى هذا المجال : « ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد ، من غير أن يضيع اتجاهه الروحى دقيقة واحدة . وهذا يختلف كثيراً من وجهة النظر النصرانية » . وأخذ الرجل يوازن بين نظرة الإسلام إلى الحياة ، وبين نظرة الغربيين إليها فيقول : « إن الغرب الحديث — بصرف النظر عن نصرانيته — يعبد الحياة بالطريقة نفسها التى يعبد بها النهم طعامه : إنه يلتهمه ، ولكنه لا يحترمه . أما الإسلام فإنها ينظر إلى الحياة الدنيا بهدوء واحترام . إنه لا يعبد الحياة ، ولكنه ينظر إليها على أنها دار ممر فى طريقنا إلى وجود أسمى . ولكن بما أنها دار ممر ، ودار ممر ضرورية فليس من حق الإنسان أن يحقر حياته الدنيا ، ولا أن يبخسها شيئاً من حقها . إن سفرنا فى هذا العالم أمر ضرورى وجزء إيجابى من سنة الله . من أجل ذلك كان لحياة الإنسان قيمة عظمى ، ولكنه يجب ألا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية فقط .

ثم ليس هناك مجال فى الإسلام للتفاؤل المادى كما هو فى الغرب الحديث الذى يقول : « مملكتى فى هذا العالم وحده » ، ولا لاحتقار الحياة الذى يجرى على لسان النصرانية : « إن مملكتى ليست من هذا العالم » . إن الإسلام يتخير فى ذلك طريقاً وسطاً . ولذلك يعلمنا القرآن

الكريم أن ندعو فنقول : « رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً » .

وهكذا نرى أن قدر هذا العالم وما فيه من متاع حق قدره لا يقف حجر عثرة فى سبيل جهودنا الروحية . إن النجاح المادى مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية فى نفسه ، إذ أن الغاية من جميع نشاطنا العملى يجب أن تكون خلقاً ، ثم احتفاظاً بأحوال فردية واجتماعية كتلك التى يمكن أن تعمل على ترقية الفضائل الخلقية فى البشر .

وعلى هذا المبدأ ترى الإسلام يقود الإنسان نحو الشعور بالتبعة الأدبية فى كل ما يعمل ، سواء أكان ذلك جليلا أم ضئيلا » .

فالمادية فى الإسلام — إن صح أن تسمى رعاية المصالح الدنيوية مادية — هى عِدل الروحية فيه . وهى ليست مادية إلا بالقدر الذى يحقق حكمة الله من خلق الإنسان ، وغاية الإنسان فى الحياة ورسالته فيها ، أما ما عدا ذلك من الماديات المستحدثة فى الغرب فهو جماح لا يكبحه إلا التوسط والاعتدال ، ولا يرده إلا الإيمان الصحيح بإله ليس هو إله الأقوياء وحدهم ، ولكنه إلههم وإله إخوانهم الضعفاء على حد سواء ...

وما ألذع سخرية الكاتب الأمريكى المعروف جون جنستر فى كتابه « داخل أوربا » حيث يتهكم من إفراط الإنجليز فى عبادة المال فيقول : « إن الانجليز إنما يعبدون بنك انجلترة ستة أيام فى الأسبوع ، ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة ! » . ومع تقديرنا لهذه اللفتة البارعة من مفكر أمريكى فإننا لا ننسى أن نذكره بالمثل العربى « رمتنى بدائها وانسلت ! » .

ويسوقنا الحديث عن المادية والروحية فى الإسلام إلى ما عاب به بعض المستشرقين القرآن من أنه وصف الجنة وصفاً ماديا حسياً ، ففيها الحور العين ، وفيها أنهار من عسل مصفى ، وفيها قطوف دانية ، وفيها من كل فاكهة زوجان ، وفيها عشرات وعشرات من أوصاف النعيم الحسى مما لا يخطر على بال . .

وغفل هؤلاء العايبون — أو تغافلوا — أن فى القرآن صفات حسية مادية للنار بما فيها من أهوال تشيب منها الولدان . . ففيها سلاسل ذرع كل واحدة منها سبعون ذراعا يسلك فيها المجرمون ، وفيها شراب من حميم يتجرعه المجرم ولا يكاد يسيغه ، وفيها طعام من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون .

فليست الحسية فى النعيم وحده ، ولكنها فى النعيم والجحيم على السواء . وقد أنصف المستشرق « سيديو » حين رد على هؤلاء العائبين بقوله : « يجب ألا يعزى إلى هذه الحسية ما ليس لها من التأثير ، ولا أن يجعل منها سبب استخفاف بدين محمد ، فهو إذ يعد من يؤمنون به من ذوى الفضل بسعادة سامية ، لم ينس أنه يخاطب أقواما من العرب والشرق ، فكان عليه أن يعرف السعادة بما تؤلف منه العناصر فى هذه الدنيا . والأديان الأخرى — إذ كانت تعد الموت انحلالا جثمانياً خالصاً ، فكانت تفترض أن البعث للروح وحدها — لم تقل بأى شأن للحواس فى قادم الآلام والمسار ، وغير هذا أمر الإسلام الذى يبعث الإنسان بعنصريه من كل وجه » .

الاســـلام والعلم :

قلب نظرك فى معجم من تلك المعاجم التى تسـجل ألفاظ القرآن ، أو تسجل موضـوعاته كمعجم لا بوم الفرنسى — وهو أحسن كتاب فى موضوعه — تجـد أن مادة « علم » ومشتقاتها وكل أنواع تصريفاتها قد وردت فى أكثر من ٥٥٠ موضعاً فى القرآن .

وتلك الحفاوة البالغة بهذه المادة ، وإدارتها على كل وجوه الاستعمال تدل على الذهنية « العلمية » التى جاء بها الإسلام وأودعها القرآن فى كثير من آياته .

والفرق شاسع بين العلم ونقيضه من عدم العـلم ، ولهذا لم يكن مجال للاستواء بين العالم وغير العالم ، وكان قوله تعالى « قُـلْ هَلْ يَسْتَـوِى الَّذِينَ يَعْـلَـمُـونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ » صريحاً قاطعاً فى رجحان كفة العلم رجحاناً لا مجال فيه لموازنة بين عالم وجاهل .

والقرآن فى غير آية يدعو إلى التفـكير وإلى النظر فى ملـكوت السموات والأرض . وليس المقصود بالنظر إلقاء النظرة العابرة ، ولـكن تعمق النظرة الفاحصة المتدبرة بدليل القرائن التى تحيط بتلك الآيات .

وأول آية نزلت من القرآن هى أمر من الله لنبيه بالقراءة ، وإشارة إلى أن الله علم بالقلم ، « عَلَّمَ الإِنْسَـان مَا لَـمْ يَعْـلَـمْ » . وكل ما فى الأرض من آثار نعمة الله فيه مجال واسع للإنسان العاقل ليتدبر ويتعلم ويتفـكر ويعقل : « وَهُوَ الَّذى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فيها

رَوَاسِيَ وأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

ولم يخلق الله آيتى الليل والنهار عبثا ، ففيهما فوق الإبصار وابتغاء الفضل مجال لتعلم السنين والحساب « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا » .

وكل ما فى القرآن من أمثال ضربها الله للناس ليفهموها على وجهها الحقيق ، وليعرفوها معرفة العقل والعلم « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

فجو القرآن كله جو علم ، ومعرفة ، وعقل ، وتدبر ، وتفكر ، ونظر ، وهى ألفاظ تدور فى الكتاب الكريم كله دوراناً يؤكد فى النفس قيمة « المعرفة » فى الإسلام . وهى معرفة مبنية على البحث والتفكير ، لا على المشاهدة السائرة ، والنظرة العابرة .

وجاءت السنة النبوية متممة للقرآن فى الحث على طلب العلم . وإذا كان المسلمون الأولون قد شغلوا أنفسهم أول الأمر بالعلوم الدينية والعلوم المساعدة لها والمعينة على فهمها كاللغة والنحو والبلاغة وما إليها ، فإنهم حين انصرفوا إلى العلوم الطبيعية الكونية أتقنوها على أكمل قدر سمح به عصرهم ، حتى لقد كانوا سادة فيها وأساتذة ومعلمين .

وإذا كان تاريخ العلم حين كتبه الغربيون قد نسب نظام التجربة والمشاهدة العلمية إلى أوربا ، فإنه يجب من الإنصاف ألا يغفل فضل المسلمين فى ذلك الميدان ، فالعرب فى تاريخ حضارتهم الإسلامية لهم فضل السبق فى وضع نظام التجربة ، ولم يكتف علماؤهم بالمقدمات والنظريات العلمية ما لم تؤيدها التجربة . وقد نقل غوستاف لوبون عن أحد فلاسفة أوربا أن القاعدة عند العرب هى : « جرب ، وشاهد ، ولاحظ ، تكن عارفاً » ، وعند الأوربى إلى ما بعد القرن العاشر المسيحى : « اقرأ فى الكتب ، وكرر ما يقوله الأساتذة تكن عالماً » .

ويذكر غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » أن العرب لم يظلوا طويلا معتمدين على كتب اليونان التى نقلت لهم ، فقد أدركوا بعد لأى أن التجربة والترصد والمشاهدة خير من أفضل الكتب . وبهذا سبقوا أوربا إلى هذه الحقيقة التى تكاد تكون من القضايا المسلمة . ويقول لوبون بنص عبارته : « يعزى إلى بيكون — على العموم — أنه أول من أقام التجربة والاختبار — اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة — مقام الأستاذ . ولكن يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم . وقد أبدى هذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات

العرب — ولا سيما هنبولد — فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة فى العلوم قال : إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريباً » .

فالمسلمون — كما ترى — هم أسبق إلى نظام التجربة فى العلوم ، وإذا كانوا لم يكتب لهم طويلا أن يستمروا فى نهضتهم العلمية تبعاً لما لابسهم من ظروف سياسية عنيفة فإن ذلك لا يجوز أن يكون سبباً لحجب فضلهم فى هذا الميدان .

ولقد حقق المسلمون فى إبان نهضتهم العلمية خلال ثلاثة قرون أو أربعة ما يزيد على ما حققه اليونان قبلهم فى أزمان طويلة ، ولم يكتف المسلمون بكشوفهم فى ميادين العلم المختلفة كالرياضة والطبيعة والفلك والطب ، بل ساعدوا على نشرها فى أنحاء العالم بما أقاموه من جامعات وما تركوه من كتب . وهل ينسى مثلا فضل ابن الهيثم فى علم البصريات ، وما حققه من كشوف كانت ريادة رائعة لعلماء البصريات من الغربيين ؟

وما أجمل وأنصف ما يقوله لوبون فى هذا المقام : « إن المسلمين العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم المسيحية عدة قرون ، ونحن الغربيين لم يتح لنا الاطلاع على التراث اليونانى والرومانى إلا بفضل العرب ، ولم يستغن التعليم فى جامعاتنا عما نقل إلى لغاتنا من كتب العرب إلا فى أزمان متأخرة » .

على أن مشاركة المسلمين فى النهضة العلمية التى شادوها فى عصور أوربا المظلمة لم تخف على واحد من طلاب الحقيقة ، ولم يجحدها إلا

مكابر أو معاند. ولقد لفت سخاؤهم فى التشجيع العلمى نظر بعض المنصفين من مؤرخى الأوربيين، حتى وجدنا مؤرخاً مثل «جيبون» يقول: «إن ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء فى إعلاء مقام العلم والعلماء، وبسط اليد فى الإنفاق على إقامة بيوت العلم، ومساعدة الفقراء على طلبه. وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة. فقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين — هو نظام الملك — مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد، وجعل لها من الريع يصرف فى شئونها خمسة عشر ألف دينار فى السنة. وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ، فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة، وابن أفقر الصناع فيها. غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة، وابن الغنى يكتفى بمال أبيه، وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة».

ولقد أبدى بعض المنصفين من الغربيين دهشته من رقى الحركة الفكرية عند المسلمين، وظهور نظريات وآراء لهم لم يعرفها الغربيون إلا بعد ذلك بزمن طويل، ومن هؤلاء الفيلسوف الأمريكى «درابر» الذى يعجب من وجود آراء علمية فى كتب العرب كان الغربيون يعتقدون أنها لم تولد إلا فى عصرنا الحديث، كالرأى فى ترقى الكائنات العضوية وتطورها فى كمال أنواعها. ويذكر درابر أن العرب كانوا يعلمون هذا الرأى فى مدارسهم، وكانوا يذهبون إلى أبعد مما ذهب إليه العلماء المحدثون، فتوسعوا فى ذلك الرأى حتى طبقوه على الكائنات غير العضوية والمعادن. فإن الأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عند علماء المسلمين هو ترقى المعادن فى أشكالها.

ولم يستطع حتى أكثر علماء أوربا ومفكريها تعصباً ضد الإسلام أن يجحد فضل العرب والمسلمين فى الفلسفة على فلاسفة أوربا ، أو أن ينكر تأثيرهم القوى فى بعض فلاسفتهم . فهذا « رينان » — على ما بدا منه فى أوائل القرن العشرين من مهاجمة مرة للإسلام والمسلمين — يقرر: « أن ألبرت الكبير مدين لابن سينا فى كل شىء ، وأن سان توما الأكوينى مدين فى جميع فلسفته لابن رشد » .

وقد بلغ من عناية المسلمين بالعلم وحرصهم عليه أنهم ضنوا بالكتب — وهى أوعية المعرفة — فصانوها ، وحافظوا عليها ، وأقاموا لها الخزائن والقوام عليها ، وبذلوا النفيس فى سبيل الحصول على نسخ خطية منها ، حتى لقد نفى المنصفون من الغربيين تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص فى أعقاب فتح مصر ، واستبعدوا أن تصدر مثل تلك الحماقة من قوم لهم ذلك الماضى المزهر فى ميدان العلم والثقافة ، على حين أن راهباً دينياً أوربياً هو الكردينال « أكزيمنيس » شارك فى أكبر جريمة ضد المعرفة بإصداره أمراً بإحراق كتب المسلمين فى غرناطة فى أعقاب سقوط الفردوس الإسلامى هناك .. وقد استفظع المنصفون من الأوربيين هذا العمل الجافى لروح العلم فتحدث عنه المؤرخ الحضارى سيديو قائلا : « وأراد الكردينال أكزيمنيس أن يمحو كل ما يذكر بالخدم التى أسداها المسلمون والعرب إلى البلاد ، فأوجب إصدار مرسوم لا يليق إلا بعصور الهمجية والتوحش ، يقضى بإحراق ثمانين ألف مخطوطة عربية فى الأماكن العامة بغرناطة » .

أما المستشرق النمساوى المسلم ليوبولد فايس فقد أنصف الإســـلام لموقفه المشرف من العلم ، وقرر فى اعتقاد قاطع بأن التاريخ يشهد بما لا ريب فيه بأنه ما من دين أبداً حث على تشجيع العلم والتقدم العلمى كما حث الإسلام ، ولا شك أن ذلك الإنتاج الثقافى الباهر فى عصر الأمويين والعباسيين وفى عصر الدولة العربية الإسلامية بالأندلس هو ثمرة ذلك التشجيع الذى لقيه العلم والبحث العلمى من الإسلام .

وما أصدق هذا الرجل وهو يقول : « إن أوربا لتعرف هذه الحقيقة حق المعرفة ، لأن ثقافتها هى نفسها مدينة للإسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس . . . ولم يقف الإسلام يوماً ما سداً فى وجه التقدم العلمى ، إنه يقدر الجهود الفكرية فى الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة . وما من دين ذهب أبعد من الإسلام فى تأكيد غلبة العقل ، وبالتالى غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة » .

هذا هو أثر الإسلام وماضى المسلمين المشرف فى ميدان العلم والتقدم العلمى ، شهد لهم به خصومهم المنصفون ، وحتى غير المنصفين . . . أما تخلف المسلمين فى هذا الميدان فليس الذنب فيه ذنب الإسلام ، ولكن لذلك أسباب يرجع إليها عند من كتبوا فيها من أمثال الشيخ محمد عبده ، والأمير شكيب أرسلان ، والعالم الهندى المصلح السيد أبو الحسن الندوى.

الاســـلام والمجتمع :

خذ الإسلام فيما يتصل بالمجتمع ، وفيما يتصل بالفرد فى المجتمع ، وفيما يتصل بالجماعات الإنسانية فى علاقاتها مع بعضها بعضاً . خذه فى طائفة من

المبادىء الاجتماعية البناءة التي حولت تفكك المجتمع الجاهلي و نظام عصبياته البغيض إلى كيان قوى موحد .

خذه بما ضمن للفرد من ضمانات تكفل له حق الحياة الجديرة بالإنسان الكريم ، فلقد أعلى قدر الإنسان بعد أن كان رخيصاً في المجتمعات السابقة على ظهور الإسلام ، وأشار إلى كمال الخلق الإنساني الذي منّ به على الإنسان في قوله تعالى « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . وليس الخلق هنا هو الخلق المادي لجسم الإنسان ، ولكنه استواء الخلق في الروح والمادة معاً .

خذ نظرة الإسلام إلى المرأة وإعطائها حقها، على الرغم من الاعتراف بقوامة الرجل وتمايزه نظراً لما وهبته الطبيعة من قوى ظلّ يتمتع بها آلاف الآلاف من السنين .

خذ حق الفقراء على الأغنياء في الجماعة الإسلامية المتكافلة المتساندة، فقد جعل الله للسائلين والمحرومين حقاً معلوماً في أموال المحظوظين وأصحاب الجدة والثراء : « والَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ » .

خذ روح الإسلام في السلام ، حتى كانت لفظة الإسلام مشتقة من أصول مادة «سلم» ، وهي مادة إن كان فيها معنى الاستسلام والخضوع لله العلي القدير من ناحية ، ففيها معنى السلم والموادعة من ناحية أخرى .

لقد تحامل على الإسلام جماعة من المغرضين الغربيين، وأحالوا فضائله إلى نقائص ، وجعلوا من محاسنه سيئات . ولا حيلة لنا مع مثل هؤلاء

المتجنين إلا أن نردد معهم فى أسف قول شاعرنا العربى :

إذا محاسنى اللائى أدل بها   كانت ذنوباً فقل لى كيف أعتذر؟

وسنذكر طرفاً من هذه الاتهامات فى الفصل الخاص بها . أما هنا ونحن فى معرض الإشارة إلى إنصاف المنصفين فيسرنا أن نشير إلى عبارة قالها تولستوى الكاتب المفكر الروسى العظيم وهى : « لا ريب أن هذا النبى — يعنى محمداً عليه السلام — من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام » .

ولم تكن خدمة النبى للهيئة الاجتماعية إلا عن طريق الإسلام الذى بعثه الله به لينشر رسالته . ولم تكن كل خدمة أسداها النبى للإسلام من دستوره هو ، ولكنها من دستور الإسلام الذى جاء ليحمل إلى الإنسانية رسالة الإصلاح .

والناس فى الشرق وفى الغرب يقرءون التاريخ ، ويعلمون كيف كان المجتمع الجاهلى ، وكيف انقلب ما بين عشية وضحاها إلى مجتمع مثالى تكافل ، حتى لقد كان الإسلام يغزو كل دولة فتحها بتلك الطائفة الجميلة من التنظيمات الاجتماعية التى رآها أهل البلاد المفتوحة رأى العين ، ووازنوا بين ما كانوا عليه قبل أن تلفهم راية الإسلام ، وبين ما صاروا إليه . حتى لقد كانت عدالة المسلمين فى مصر والشام فى أعقاب الفتح العربى الإسلامى مضرب الأمثال .

ورجحت كفة الأخلاق العربية الإسلامية فى الأيام الأولى للإسلام بما اشتهر حتى صار حقيقة مقررة ، وأمراً واقعاً لا يحجبه جحود ولا نكران .

وهنا نجد غوستاف لوبون يشير إلى تلك الحقيقة بقوله : « كانت أخلاق العرب فى أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة — ولا سيما الأمم النصرانية — وكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة ، ووفاؤهم بعهودهم ، ونبل طبائعهم ، مما يستوقف النظر ، ويناقض سلوك الأمم الأخرى ، ولا سيما الأمم الأوربية أيام الحروب الصليبية » .

وحين يشير لوبون إلى الأمم الصليبية فإنه يستحضر لنا فى الذهن المقابلة بين صورتين ، والموازنة بين موقفين : موقف الصليبيين من المسلمين يوم فتحوا بيت المقدس ، وموقف المسلمين يوم أن استردوه على يد البطل الإسلامى الذائد صلاح الدين الأيوبى . إن كتب التاريخ ـ سواء أكانت إسلامية المصادر أم أجنبيتها ـ مملوءة بصور هذه المفارقات والمناقضات .

وإذا كان قد طرأ على المسلمين والبلاد الإسلامية بعد العصور الماجدة للإسلام أحوال من الضعف والتفكك والتفسخ الاجتماعى ، والتحلل الخلقى ، فليس الذنب فى ذلك للإسلام الذى يجب أن يكون بريئاً بعيداً عن كل اتهام ، وإنما ذنب الذين انتسبوا ظلماً إلى الإسلام ، وحسبوا عليه ، وهو منهم براء .

وقد تولى لوبون فضل الدفاع فى هذه القضية فقال بعد أن أخذ يعدد كمال الأخلاق فى الإسلام : « وما تقدم يثبت — بدرجة الكفاية — فساد الرأى الأوربى القائل أن دين محمد هو سبب ما يشاهد فى بعض أمم الشرق من الانحطاط . ورأى فاسد مثل هذا مصدره ما قيل من إبداعه لمبدأ تعدد الزوجات ، وما زعم من أن « الجبرية » فى الإسلام تحمل

الإنسان على الكسل ، وما أذيع من أن محمداً لايطالب أتباعه بغير الشعائر السهلة . فالقارىء الذى سار معنا إلى هنا ، يرى درجة بعد هذه المزاعم عن الصحة . وقد رأينا أن مبدأ تعدد الزوجات كان شائعاً فى المشرق قبل ظهور محمد بقرون كثيرة ، وأن جبرية القرآن ليست أشد مما جاء فى كتب الأديان الأخرى ، وأن العرب — إذا كانوا جبريين بسجيتهم — لم تؤد جبريتهم إلى الخمول وقد شادوا دولة عظيمة ، وأن أصول الأخلاق فى القرآن سامية سمو ما جاء فى أى كتاب دينى آخر . ولو أن القرآن كان عاملا فى انحطاط مسلمى الشرق، لوجب أن يتفلت من هذا الانحطاط الشرقيون الذين لا يقولون بمبدأ تعدد الزوجات ولا يدينون بالجبرية الإسلامية » .

نعم لقد ظهر تخلف فى المسلمين وفى بلاد الإسلام ، وتوالت على الأمم الإسلامية نكبات : نكبات المغول والتتار — حتى التتار المسلمين — ونكبات العثمانيين بالفتح العثمانى الذى عطل سير الحضارة الإسلامية أربعة قرون ، ونكبات الصليبيين الذين دامت حروبهم ضد الإسلام والمسلمين قرنين من الزمان ، ونكبات نصارى أسبانيا فى الأندلس التى أضاعت الفردوس الإسلامى هناك ، ونكبات الاستعمار وما إليه من مصائب الأعوان والخوّان . وهذه النكبات — وأشباهها — هى التى أصابت المسلمين بالجمود ، وجرأت المتعصبين على الجحود . أما « الجبرية » الإسلامية وتعدد الزوجات وما إليها من التعلات والأوهام التى يقذف بها المرجفون بالباطل ، فما كانت لتعوق الإسلام أو تؤخره أو تعطله . وقد كان الإسلام فى أيام ازدهاره الأولى قوياً ، سليماً ، صافياً ، رائداً فى المجتمع العالمى ، على الرغم من وجود الجبرية وتعدد الزوجات فيه ...

على أن تعدد الزوجات — وهو مسألة يلذ لخصوم الإسـلام أن يلوكوها دائماً — قد تولى بعض المنصفين من الغربيين الدفاع عنه بما يكشف عن وجه الحق والمصلحة والحكمة فيه . واسمع إلى ما يقوله المستشرق الفرنسي المسلم « إتيان دينيه » فى هذا الصدد : « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التى لا تغلب ، وإنما هو يسـاير قوانينها ، ويزامل أزمانها ، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ، ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة . . . . على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها ، وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا ، وأسهل تطبيقاً ، فى إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور . حتى لقد سمى القرآن كذلك بالهدى لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .

والأمثلة العديدة لا تعوزنا ولكننا — للقصد — نأخذ بأشهرها ، وهو التساهل فى سبيـل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع ، والذى جلب للإسلام فى نظر أهل الغرب مثالب جمة ومطاعن كثيرة .

ومما لا شـك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى ، ولـكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصـادم الحقائق ؟ بل هو الحل الذى يستحيل تنفيذه . لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع — وهو دين اليسر — إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج ، فلا يحكم فيه حكماً قاطعاً ، ولا يأمر به أمراً باتاً . والذى فعله الإسلام أول كل شىء أنه نقص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحاً دون قيد .

وانظر كيف وصفه الإسلام وصفاً هو غاية فى الرقة واللطف مع الحكمة .

ثم انظر هل حقيق أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ هل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ؟ ! وإلا فهؤلاء مثلا ملوك فرنسا — دع عنك الأفراد — الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات ، وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة تعظيم وإكرام !!

إن تعدد الزوجات قانون طبيعى ، وسيبقى ما بقى العالم ، ولذلك فأن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته ، فانعكست الآية معها ، وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها فى ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها ، فكان التحريم إغراء . على أن نظرية التوحيد فى الزوجة — وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً — تنطوى تحتها سيئات متعددة ، ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء : تلك هى الدعارة ، والعوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين » .

على أن القرآن لم يطلق التعدد ، ولم يبحه على علاته لأصحاب النزوات والشهوات من الرجال ، بل قيده ، وشرط فيه العدل بين الزوجات ، وأين منا العدل الذى نفاه القرآن بقوله : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ، وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .

وحين أباح الإسلام التعدد فى حالات خاصة رعاية لاعتبارات خاصة

فيها مصلحة الرجل والمرأة والمجتمع نفسه فإنه لم يقصد مطلقاً أن يحط من شأن المرأة أو يهون من قيمتها ، بل على الضد من ذلك لقد رعى إلى كرامتها بتلك الإباحة . وشهد المنصفون من الأجانب بتلك الحقيقة ، حتى لنجد مؤرخاً مثل سيديو يقول فى هذا الصدد : « والقرآن — وهو دستور المسلمين — رفع شأن المرأة بدلا من خفضه ، فقد جعل محمد حصة البنت فى الميراث تعدل نصف حصة أخيها ، مع أن البنات كن لا يرثن فى زمن الجاهلية . ومحمد — وإن جعل الرجال قوامين على النساء — بين أن للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها » .

أما المستشرق المنصف غوستاف لوبون فيقول : « والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعى وشأنها رفعاً عظيماً ، بدلا من خفضهما ، خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى . والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوربية » .

وكرر لوبون — على طريقته فى تكرار الحقائق لتثبيتها — ملاحظته لما صنع الإسلام من رفع المرأة وإعلاء شأنها — خلافاً لما يقال بغير دليل ولا علم ، فقال فى موضع آخر من كتابه القيم « حضارة العرب » : « وهنا نستطيع أن نكرر — إذن — قولنا إن الإسلام الذى رفع المرأة كثيراً ، بعيد من خفضها . ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة ، بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل مثل ذلك . ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التى جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة ، وهذا ما أوضحناه فى كتابنا الأخير ، فلا نرى غير تكرار ما ذكرناه لإقناع القارىء » .

أما الجبرية « فى الإسلام ، والزعم بأنها هى التى أفضت إلى التواكل ، والتخلف بين المسلمين ، فذلك اتهام يكاد يكون مشتركا بين المتعصبين من المستشرقين ، وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه ، وهى تهمة رخيصة يراد بها إخراج الحق عن وجهه الصحيح ، وتصوير القضية بصورة تدين الإسلام بتهمة هو منها برىء ، فليس من العدل انتهاز فرص من ضعف المسلمين وتخلفهم لتؤخذ دليلا ضد الإسلام نفسه . وما أصدق ما قاله المؤرخ سيديو فى هذا المقام : « وجد من لام محمداً على انتحاله مذهب الجبرية ، بيد أن المبدأ الذى يحتويه القرآن لم يكن من نوع قضاء القدماء ، ولا من نوع قدر بعض المذاهب الحديثة ، فليس فى القدر الإسلامى ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدى إلى فتور همته . فهذا القدر مرادف لسنة الكون التى تهيمن على جميع النـاس وتضع حداً لأعمالنا . قيل للنبى : يا رسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر له لما خلق له » .

فالإسلام دين اجتماعى ، ودين صلاح وسلام للمجتمع ، على الرغم عما يرميه به المبطلون من أنه اعتمد على القوة والسيف فى نشر دعوته . وقد تصدى لتكذيب هذه الفرية جماعة من منصفى الغربيين ، منهم توماس كارليل صاحب كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » الذى وصف هذا الاتهام بأنه سخف غير مفهوم ، وبين ما فيه من مخالفة لواقع التاريخ .

أما غوستاف لوبون ، فقد كذب هذا الاتهام الرخيص بقوله : « لم ينتشر القرآن بالسيف إذن ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول » .

وما أصدق ما قاله المستشرق النمسوى المسلم ليوبولد فايس من أنه « القوة الباطنة والتماسك الاجتماعى فى العالم الإسلامى كان أرقى من كل شىء خبره العالم عن طريق التنظيم الاجتماعى » وقوله فى موطن آخر : « إن الإسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لا يزال ، بالرغم من جميع العقبات التى خلفها تأخر المسلمين ، أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر » .

وصلاحية الإسلام للمجتمع وتقويمه له على أسس من العدالة والفهم الحقيق للإنسان وقيمته فى الحياة تدعونا إلى التفكير فى تقويم الإسلام للحياة . فقد دعا إليها بالقدر الذى لا يعطل الواجب نحو الآخرة، ورفع من شأن الحياة ، على الرغم من تذكيره — بين حين وحين — بأنه الدنيا متاع الغرور ، حتى لا يتكالب الناس عليها ، ويصبحوا أسرى للشهوات والمطامع فيها . ودعا الإنسان أن يأخذ بنصيبه من الدنيا ولا ينساه ، فإن نسيان هذا الحق تضييع لمعنى الحياة ، ولرسالة الإنسان فيها .

وهنا يحضرنا ما قاله الفيلسوف الألمانى نيتشة عن الإسلام والحياة : « لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك الإسلام . لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة : مدنية الأندلس . ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة . نعم ! من غرائز رجال .

إن تلك المدنية الإسلامية لم تنكر الحياة ، بل أجابتها بالإيجاب ، وفتحت لها صدرها . ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك ، وكان أولى بهم أن يسجدوا لها على التراب ويعبدوها . وما مدنيتنا فى هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة وانية بجانب مدنية الإسلام فى ذلك الوقت » .

الفصل الخامس

إنصاف القرآن

القرآن هو دستور المسلمين والإسلام ، وهو الكتاب الذى أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليجد فيه المسلمون نظام حياتهم وصلاح أمورهم فى الدنيا والآخرة . وهو ليس كتاباً للتبرك ، أو تعويذة يعلقها الجهال ولا يدرون ما فيها من المعانى الكريمة الرائعة ، التى وجهت المسلمين فى أول عهدهم بالإسلام وجهة كان فيها الخير ، والفتح المبين ، والعزة ، والسلطان .

ولقد صرف الله الخير عن المسلمين حينما انصرفوا عما فى القرآن ، وأعرضوا عن فهمه ، وحادوا عن العمل بما فيه من مبادىء وقواعد عالية رفيعة ، صالحة لكل زمان ومكان ، وأصبحوا يتعبدون بتلاوته تلاوة تقليد ، لا يدرك فيها معنى ولا يستشعر فيها جلال ، ولا يتحقق فيها فهم . وأنزلوه من مقام الإجلال والتقديس الواعى إلى مقام استدرار الصدقات بقراءته ، أو الترنم به على القبور ، أو التمطى بتلاوته على أبواب المساجد ، أو الاستشفاء به بأحجبة مكتوبة بطريقة خاصة . وصرنا إلى حال نجد فيها أكثر الناس تمتمة بآيات الله أبعدهم عن فهمها ، وإدراك جلال معانيها ، والعمل بما فيها .

والقرآن كلام الله ، ما فى ذلك أدنى ريبة ، ومن جحد ذلك فقد جحد بعض أركان دينه ، وقوض دعائم إسلامه .

وعلى الرغم مما تعرض له القرآن من حملات المغرضين ، وشبهات المبطلين ، فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، وبين العرب وغير العرب ، مما سيأتى ذكره بعد ذلك فى موضعه ، فإننا نرى جماعة من المنصفين الغربيين يقدرون القرآن حق قدره ، وينزلونه المنزلة الجديرة به ، ويطربون إذا سمعوا آية منه أو آيات ، لا طرب الأذن بالنغم ، ولكن طرب البصيرة الواعية بالكلمة الطيبة . ولعل ذلك السحر الكامن فى القرآن هو الذى جعل الوليد بن المغيرة ـ وكان من فصحاء قريش ـ يسمع آيات منه فى أول عهد الناس بالدعوة ، فيخشع قلبه ، ويجد فيها شيئاً لم تألفه الأذن العربية ، ولا ألفه العرب فيما كانوا يسمعون وفيما كان يدار عليهم من قول : منثور أو منظوم ، فيقول : « والله إن أسفله لمورق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر » .

وحين نذكر تلك الحادثة البعيدة ، الناشئة مع دعوة الإسلام أول العهد به ، نذكر ما قاله جون كنجسلى بيرج رئيس إدارة النشر لمجلس البعثات الأجنبية فى المؤتمر السنوى الخامس الذى أقامه معهد الشرق الأوسط بمدينة واشنجتون الأمريكية سنة ١٩٥١ . فقد قال ذلك الرجل : « ونحن الغربيين يجب ألا نكون متسامحين فحسب ، بل مشفقين ومتفهمين أيضاً . وأنا أضع على حائط مكتبى آية من القرآن ، ولدى كذلك حديث نبوى . وأحب أن أتخير آيات أخرى من القرآن تحرك بى الإلهام الدينى . ونحن محتاجون أن نتفهم الآيات القرآنية الجميلة ذات المعنى الدينى العام الذى يلائم كل إنسان » .

ولقد كتب المستشرق « نولدكه » مؤلفاً ضخماً عن القرآن

لم يسلم بالطبع من المغامز التى تلق هنا وهناك ، على الرغم من عمق البحث ودقته ، وأحاطته بكثير من المسائل والدراسات القرآنية التى لا تتوفر إلا مع الصبر الطويل والسهر الدائم ، كما لم يخل كتاب واحد مما كتبه المستشرقون عن الإسلام ونبى الإسلام وكتاب المسلمين وتراث العرب وحضارتهم من فصل طويل أو قصير ، أو إشارة هنا وهناك إلى القرآن باعتباره دستور الإسلام والمسلمين ، فيكون الكلام عن الإسلام أبتر لو لم يذكر فيه شىء عن القرآن .

ولا نتعرض هنا لهجات المستشرق جولد تسيهر وغمزاته المكشوفة فى كتابه : « العقيدة والشريعة فى الإسلام » فلذلك موضع آت من هذا الكتاب . ولكننا نشير إلى بحثين عن القرآن : أحدهما لغوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » ، وثانيهما للمؤرخ « سيديو » فى كتابه : « تاريخ العرب العام » الذى ترجمه المرحوم عادل زعيتر فيما نقله إلينا نقل الأمين من روائع الفكر الغربى .

وعلى الرغم مما أنصف به لوبون وسيديو القرآن الكريم بين جماعة ندرَ الإنصاف فيهم أو انعدم، فإن هناك بعض مسائل لابد من الوقوف عندها فيما كتبه هذان المنصفان، وخاصة فيما يتعلق بكون القرآن مُنزّلاً من عند الله . وتلك قضية لا يسيغ غير المسلم قبولها ، ولكن ذلك لم يمنع الرجلين من إنصاف القرآن بما يستحق أن يسجل لهما .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض ما كتبه سيديو عن القرآن : « ومن شأن مبدأ التوحيد الجليل الذى نشر بين قوم وثنيين ، أن يضرم الحمية فى النفس المتحمسة العالية ، ويسود هذا المبدأ القرآن ، وإليه يعود إبداعه .. »

« ولا نجد فى القرآن صفحة لا توحى بمحبة شديدة لله » .

« ويقول بعضهم إن القرآن ينكر حرية الإنسان وإرادته ، وأنه يحصر الإنسان ضمن دائرة سلبية من عدم الاكتراث ، لما رئى من نص القرآن على أن الله يختار أصفياءه فى هذه الحياة الدنيا ، ولما كتب من نصر لمن يجب أن ينتصروا ، ومن هلاك لمن يجب أن يهلكوا فى المعارك .

ويستنبط بعضهم قول القرآن بعدم فائدة الفضيلة لما رئى من وضعه الإيمان وصالح الأعمال فى مستوى واحد لنيل ثواب الآخرة . ونحن لا نرى ذلك من الحق ؛ ونحن نرى أن محمداً يذهب فى القرآن إلى حرية الإنسان وتأثير إرادته فى عمل الخير والشر .

وفى القرآن حث كبير على الفضيلة ، خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلق ... وفى القرآن دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف ، وحسن المقاصد ، والصفح عن الشتائم . وفى القرآن مقت للعجب والغضب ، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر . وفى القرآن حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين . وفى القرآن تحريض على خفض الجناح والتواضع ، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم ، لا لعنهم .

ويكفى جميع الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشداً لإثبات قواعد الأخلاق فى القرآن ، وليس فيها ما يناقض ما ورد فى الإنجيل ، بيد أنك لا تجد فى القرآن ما فى الإنجيل من التسليم الذى يفيد كثيراً عند الشدائد . فترى محمد يأذن — بين كثير من المتناقضات — فى مقابلة السيئة بالسيئة ، كأن الناس لم يكونوا مستعدين لذلك قبل ذلك ... ومحمد حين يقول بمبدأ

القصاص الذى رضى به اليهود مع ذلك يكون قد ساير أحكام زمانه وقومه. وفى هذا إيضاح لمختلف الآراء التى أبداها بعض الناقدين حول القرآن ، ومن هؤلاء من جعلوا من ذلك مجموعة خدائع اختلطت بأرقى المبادىء ، ومن هؤلاء من لم ينظروا إلى ما كان يحيط بالنبي من ضروب العوائق التى تعوق سيره ، فلاموه على أعمال يرفضها عقله ، فلم يسمح بإبطالها ما فطر عليه قومه من الخلق العاطفى والأهواء .

وبما تقدم نرى أن القرآن أبصر كل شىء ، وأنه لم يهمل أمر فى عمل محمد الدينى أو المدنى أو الحربى . وترى السلطة الزمنية والسلطة الروحية قبضة رجل واحــد ، ولا ترى سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ، ولا طبقات ذات امتيازات » .

وهكذا يتنقل سيديو فى وجوه الدفاع عن القرآن والكشف عما فيه من أرقى المبادىء ، حتى يبلغ اتهام المبطلين بأنه ليس إلا نسخة مبتورة عما قبله من الكتب السماوية ، فيقول فى إنصاف : « لقد بينا الصفات العامة التى تجعل من القرآن كتابا مبتكراً ، مع ماادعاه كثير من المؤرخين الذين قرأوا فيه مبادىء وقصصاً مقتبسة من الكتاب المقدس ، فأسرعوا فى قولهم إنه نسخة ناقصة عنه . ونحن — حين نقدر القرآن — نقول إن محمداً لم يبتغ فى تأليفه (١) أن يمنح البشرية أدباً أفضل عما فى الإنجيل ،

(١) يلاحظ دائما أن الغربيين يكررون هذه النغمة : نغمة كون القرآن من تأليف محمد عليه السلام ، حتى سيديو وهو فى معرض الدفاع عن القرآن ! وعجيب جدا أن يؤمن هؤلاء الناس ببعض الكتاب ويكفروا ببعض . ففى القرآن اشارات كثيرة الى أنه من عند الله تعالى: « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

أو أن يفرض دستوراً واحداً على جميع أمم الشرق ، أوأن يحصر الشعور الديني فى حدود أبدية لا تتبدل . وإنما أراد أن يربط جميع قبائل جزيرة العرب بقاعدة مشتركة ، وأن يوحدها تحت لواء واحد ، وأن يجعل بينها تضامناً قوياً فى المنافع ، فتقلع عما تعودته من الأثرة المحلية ، وأن يعودها على الخضوع لنظم واحدة فتنزع من صدورها الأحقاد ، فتتضافر على تعجيل حضارتها .

فإذا ما نُظر إلى القرآن من هذه الناحية ظهر اختلافه الكبير عن العهد الجديد والعهد القديم اللذين أريد قياسه بهما » .

الفصل السادس

إنصاف محمد

لم يسلم الإسلام ولا القرآن من اتهامات كثيرة قذف بها الغربيون عامة والمستشرقون خاصة ليحاولوا النيل من هذا الدين المتين، وقد شغلوا بذلك أنفسهم زماناً طويلا. وبالطبع كان النبي عليه السلام هدفاً فى هذه الحملات الجائرة الدائرة التى لا تبطل من حين إلى حين.

وسيتصل بنا موضوع الحديث إلى طائفة من تلك التهم الرخيصة التى وجهت إلى النبي ظلماً. على أننا فى هذا الفصل، ونحن فى مقام الإشارة إلى الإنصاف لا الإجحاف — كما أشرنا قبلا إلى إنصاف الإسلام والقرآن — نشير إلى ثلاثة مواقف من سيرة الرسول كانت غرضاً لسهام الحاقدين من المبشرين وأعداء الإسلام ونبى الإسلام، كما لقيت من بعض المنصفين من الغربيين دفاعاً ليس من عرفان الجميل إغفاله ونحن هنا فى مقام يقتضى العرفان، لا الجحود والنكران.

وأولى هذه المسائل «حكاية الغرانيق» التى هلل لها المستشرقون وكبروا، وحاولوا إثبات القصة — على الرغم من تهافت روايتها — إخفاء لحاجة فى نفوسهم، وتابعوا فيها أضعف الأقوال والأسانيد ليخلعوا عليها ثوب الصحة، وليجعلوا منها حقيقة تؤيد مطاعنهم، وتعطيهم مادة طيبة للاتهام الرخيص.

ويكاد يجمع المستشرقون على قبول مسألة الغرانيق قضية مسلمة. فلا يأخذون فيها بعقل ولا منطق سليم، ولا يعرضونها على محك النقد

والتمحيص حتى يتبين وجه الحق فيها . لأنهم بالطبع لا يحبون أن ينكشف الحق فى مسألة تصلح موضعاً للكلام والتجريح . إلا رجلا مؤرخاً إيطالياً منصفاً هو المستشرق « كايتانى » الذى جرى مع المحققين من علماء المسلمين على إنكار قصة الغرانيق لتهافتها فى الإسناد وفى الحوادث .

ويتصل حديث الغرانيق بحادث عودة المهاجرين المسلمين — الذين هاجروا إلى أرض الحبشة — إلى مكة ، بعد ثلاثة أشهر فقط من مقامهم بتلك الأرض التى رحبت بهم وأحسنت استقبالهم . وكان الحافز إلى هذه العودة السريعة التى لم تكن مرتقبة هو ما وقع فى مكة من حادث حديث الغرانيق الذى روته طائفة من كتب الطبقات والسيرة والتاريخ والتفسير. وذلك أن النبى عليه السلام لما رأى تجنب قريش إياه وإيذاءهم لأصحابه ، تمنى فقال : ليته لا ينزل علىَّ شىء ينفرهم منى . وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه . فجلس يوماً فى ناد من تلك الأندية التى تقوم حول الكعبة ، فقرأ عليهم سورة النجم ، حتى بلغ قوله تعالى : « أفرَأيْتمُ اللّاتَ والعُزَّى ، ومَنَاةَ الثالِثةَ الأخْرى» . وقرأ بعد ذلك : «تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى» ، ثم مضى فى قراءة السورة حتى آخرها وسجد . وهنالك سجد القوم جميعاً لم يتخلف منهم أحد . وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبى ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ، ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، أما إذْ جعلت لها نصيباً فنحن معك . وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم .

وبلغ ذلك مسامع المسلمين فى أرض الحبشة ، فقالوا : عشائرنا أحب إلينا ، وخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا

ركباً من كنانة فسألوهم ، فقالوا : ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشر . وأتمر المسلمون ما يصنعون . فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبراً فدخلوا مكة .

وتضيف كتب التاريخ والطبقات أن النبي عليه السلام ارتد عن ذكر آلهة قريش بالخير ، لأنه كبر عليه قول قريش : « أما إذ جعلت لآلهتنا نصيباً فنحن معك » . ولأنه حين عرض على جبريل فى المساء سورة النجم وفيها مسألة الغرانيق قال له جبريل : أو جئتك بهاتين الكلمتين؟ فأجابه النبي : قلتُ على الله ما لم يقل ! ثم أوحى الله إلى نبيه : « وَإِنْ كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عنْ الذى أوْحيْنا إليْكَ لِتفْترى علينا غيرَهُ ، وإذنْ لاتَّخذوكَ خليلاً ، ولوْلا أنْ ثبَّتْناك لقدْ كِدْتَ تَرْكنُ إليهم شَيْئاً قليلا . إذَنْ لأذَقْناكَ ضِعفَ الحَياةِ وَضِعفَ المَماتِ ثُمَّ لا تجِدُ لكَ عليْنا نصِيرًا » . وهنا عاد عليه السلام يذكر آلهة قريش بالشر ويسبهم ، وعادت قريش إلى مناوأته وإيذاء صحابته .

وحديث الغرانيق لم يقبله المحققون من علماء المسلمين ، واحتجوا عليه بالقرآن نفسه وبالسنة النبوية وبالمعقول . حتى لقد سئل أحد الرواة عن هذه القصة ، فقال : هذا من وضع الزنادقة . كما طعن الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى فى هذه القصة من جهة النقل ، وذكر أن رواتها مطعون فيهم . أما الإمام ابن حزم فقدقال : « والحديث الذى فيه : وإنهن الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فكذب بحت ، لأنه لم يصح قط من طريق النقل ، ولا معنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد » .

وقد تناول مؤرخو السيرة المعاصرون قصة الغرانيق بالنقد والتحليل، ودمغوها بأدلة قاطعة من التاريخ نفسه، وبلفظها اللغوى نفسه. ومن هؤلاء الشيخ محمد عبده الذى فند القصة بأن وصف العرب لآلهتهم بالغرانيق لم يأت لهم فى نظم ولا فى خطب، ولم يكن ذلك جارياً على ألسنتهم. ولم يستعمل «الغرنوق» و «الغرنيق» إلا استعماله الحقيقى بكونه طائراً مائياً أسود أو أبيض، أو استعماله مجازياً للشاب الأبيض الجميل.

وأيد المستشرقون المغرضون قصة الغرانيق، وأطالوا الكلام فيها بما يتفق ومصلحتهم فى غمز النبي والطعن على طريقة الوحى. وذكرتها «الموسوعة التاريخية للقرون الوسطى» التى أصدرتها جامعة كمبريدج على أنها حادثة صحيحة لا مطعن فيها. وعاق كاتب البحث: «بأن كثيراً من محقق المسلمين يعدون هذه القصة باطلة لا تستند إلى الواقع، وهذا ما كان ينتظر منهم، لكن من المدهش أن مؤرخاً غير ذى غرض مثل كايتانى ينكرها أيضاً».

ولا وجه للدهش فى أن يتحرى مستشرق مثل كايتانى وجه الحق، ولكن المدهش حقاً أن يعدل الناس عن الحقيقة الناصعة لأغراض لاتخفى على أصحاب العقول...

هذا هو موقف من مواقف الإنصاف للنبي عليه السلام وقفه مستشرق أوربى، وهناك موقفان آخران لقيا من بعض المستشرقين المنصفين دفاعاً عن النبي أو أهل بيته، وإقراراً للحق الذى يتعامى عنه المغرضون حين يحاولون أن ينالوا منه. على حين تناولها بقية رجال الاستشراق ومن إليهم بألسنة حداد.

أما أول الأمرين فلا يتصل بالنبي مباشرة قدر ما يتصل بزوجته عائشة بنت أبي بكر ، فلقد أشاع المرجفون عنها أنها تخلفت عن الركب بعد غزوة بنى المصطلق ، وتركت هودجها ، وجاءت مع « صفوان » على بعيره ، وهو شاب وسيم فيه شباب وفتوة .

وطالت الألسنة فى الاتهام ، وغذتها الغيرة بين نساء النبي بما هو استجابة ضرورية لطبيعة المرأة حتى ولو كانت من أمهات المؤمنين . . وكان لحمنة أخت زينب بنت جحش زوج النبي عليه السلام يد فى إطلاق هذه الهمسات المؤذية حول عائشة ، لما كانت تحس به زينب من غيرة ، ولما كانت تراه من حظوة عائشة عند النبي .

وارتفع الهمس إلى كلام ذى صخب كثير دوت به أرجاء المدينة ، حتى كاد يؤدى إلى فتنة ، ووجد شيخ المنافقين — عبد الله بن أبيّ — فى الإرجاف بهذه الفرية شفاء لما يجده فى نفسه من حقد على الرسول ، وتأذى الرسول بما بلغه من حديث الإفك حتى بدا من علاقته بعائشة جفاء لم تألفه منه ، وهى التى كانت دائماً موضع الحظوة والملاطفة .

وتتابعت أحداث انتهت إلى النهاية التى كانت متوقعة منذ بداية الفرية ، وهى براءة السيدة عائشة بشهادة القرآن نفسه ، فقد أنزل الله آيات على النبي فيها تبرئتها .

والحق أن ما أثير حول عائشة لم يكن إلا افتراء تكذبه الوقائع ، ويدحضه ما عرف من طهارتها وعفتها . فقد كانت فى الركب ثم نزلت لبعض شأنها ، فانفرط عقدها فى الرمال ، فأخذت تبحث عنه إلى أن

أعياها البحث ، فعادت إلى الهودج لتستقله ، فوجدت الركب كله قد ارتحل ، وقد شدوا هودج عائشة وحسبوها فيه لأنها كانت خفيفة المحمل . فظلت مكانها تنتظر دعوة الباحثين عنها حين يفتقدونها فلا يجدونها ، وبينما هى كذلك إذ مر بها صفوان ، وكان قد تخلف عن العسكر أيضاً لبعض حاجته ، فلما رآها تراجع دهشا ، وقرب لها البعير فى استحياء وهو مستأخر عنه حتى ركبت ، وانطلق بالبعير مسرعاً يطلب اللحاق بالركب فلم يدركهم ، ودخل المدينة فى وضح النهار وهى على ظهر البعير بما لا يدع مجالا لريبة ، إلا ما كان بعد ذلك من إفك الآفكين .

ولقد أنصف « موير » كاتب سيرة النبى ، السيدة عائشة ، وخلصها على بعد الزمان من ألسنة الاتهام قائلا : « إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها ، وعدم التردد فى دحض أية شبهة أثيرت حولها » .

أما بودلى مؤلف كتاب « الرسول : حياة محمد » فقد عرف كيف يصور لنا نفسية عبد الله بن أبىّ مذيع حديث الإفك ورأس المرجفين به قائلا : « لم يقل لى أحد من أصدقائى العرب كيف كان يبدو عبد الله ابن أبى ، ولم يوصف فى أى كتاب من الكتب التى قرأتها . ولكن من الواجب أن يكون شخصية غير محبة ، شخصية خائنة شريرة ، فظة جبانة ..

ويلوح أن أمنية حياته كانت مضايقة محمد ، فما إن سمع بعودة عائشة منفردة إلى المدينة حتى راح يوسع الأرض إذاعة » .

أما ثانى الأمرين فهو اتهام الرسول بالخطأ والجهل لموقفه من تأبير نخل المدينة أى تلقيحه بطريقتهم الخاصة . وقد تولى الدفاع عن الحق

فى هذه التهمة الباطلة بودلى مؤرخ سيرة الرسول قائلا : « وقيل إنه — يعنى النبى عليه السلام — كان يرتكب أخطاء أحياناً . وها هى ذى حادثة تتعلق بأحد هذه الأخطاء المزعومة ، تقوم شاهداً على أن كتّاب السير لا يتحرون الدقة عند ما ينسبون أشياء إلى محمد . وإن هذه الحادثة تظهر فى كثير من التراجم التى كتبها كتاب الغرب عن الرسول ، بينا أنها — كما هى العادة — لا تضر محمداً أو الإسلام ، وإنما هى قطعة من غباء الكتّاب » .

وأخذ بودلى بعد ذلك يعرض حادثة تلقيح نخل المدينة وموقف النبى منها . والحادثة مذكورة فى كتب السنن ، وهى كما رويت فى صحيح مسلم أن الرسول قدم المدينة وهم يؤبرون النخل — أى يلقحونه — فقال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً .. فتركوه ، فنفضت — أى لم تثمر النخل — فذكروا ذلك له فقال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى رواية أخرى قال لهم عليه السلام : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

ولا وجه مطلقاً للوم النبى أو اتهامه فى هذه الحادثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يصر على رأيه بعدم تلقيح النخل كعادة أهل المدينة ، ولما جاءت التجربة مخيبة لما أشار به لم يستمر على الخطأ ، بل عدل عنه قائلا لهم : أنتم أعلم بأمور دنياكم . وقد كان يجب فى شرعة الإنصاف أن يكون ذلك الموقف من الرسول محلا للتقدير والإشادة ، لا موضعاً للوم والنقد كما فعل المستشرقون الذين أشار إليهم بودلى .

الفصل السابع

الإسلام فى موقف الاتهام

أشرنا فى فصل سابق إلى موقف خصوم الإسلام منه، ومحاولتهم النيل منه بكل وسيلة، حتى لقد صور لنا المستشرق المسلم فايس هذه المحاولات فى صورة محاكمات صمم فيها القضاة على النطق بأحكام معينة ثابتة فى أذهانهم، فهى من باب الأحكام التى لا مفر منها، والأقضية التى لا بد من النطق بها، مهما كانت براءة المتهم واضحة.

ولم يبلغ ساخر ما بلغه هذا الأوربى المنصف من هؤلاء المحكمين غير العدول. فقد وقرت فى أنفسهم قضايا ومسلمات خاطئة جائرة، ولم يكلفوا أنفسهم - لو كانوا عدولا - أن يبحثوا عن وجه الظلم فيها، ولكنهم بيتوا الأحكام، منذ اللحظة الأولى فى الاتهام. ومثل هؤلاء لا تجدى معهم مناقشة، ولا يغنى أمامهم دفاع.

لقد صبوا التهم على الإسلام ونبى المسلمين وقرآنهم صبا، لا يبالون فى ذلك بمنهج علمى، ولا بحرمة علمية، ولا بقيمة الحقيقة، قدر ما يبالون بالاتهام لوجه الاتهام.

لقد اتهموا الإسلام بالجمود والإنكار من قيمة العقل والتهوين من شأنه، حتى لقد زعم جولدتسيهر فى كتابه «العقيدة والشريعة فى الإسلام» أن المعتزلة أدخلوا فى المعرفة الدينية عنصراً آخر قيماهو «العقل»، الذى كان - حتى ذلك الحين - مُبعداً إبعاداً شديداً عن هذه الناحية.

وهو حين ينصف المعتزلة لمناصرتهم العقل ، يظلم الإسلام ظلماً شديداً لاتهامه إياه بأنه كان قبل ظهور المعتزلة معطلا للعقل . كأن الإسلام والقرآن كانا فى غفلة عن القيم العقلية والفكرية الغالية فى الوجود ، إلى أن جاء المعتزلة فدلوا الإسلام والمسلمين على هذه القيم ونبهوهم إليها . ونسى جولد تسيهر — وهو قاض محكّم فى تهمة لا بد من إلصاقها — أو تناسى تلك الآيات القرآنية الكثيرة التى تحض على التعقل ، والتفكر ، والتدبر ، والنظر ، والتذكر .

نسى قوله تعالى فى سورة الروم : « إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعقِلونَ » . ونسى قوله فى سورة الرعد : « إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفكرونَ » . ونسى قوله تعالى فى سورة ص : « كِتابٌ أنزَلناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيدَّبرُوا آيَاتِه ، ولِيتذَكر أولو الألباب » .

ونسى آيات أخرى كثيرة توجه النظر إلى التفكير و«النظر» فى ملكوت السموات والأرض . وليس «النظر» هنا لمجرد المشاهدة والتسلية ، وإلقاء النظرة السطحية ، ولكنه نظر يدعو إلى التعمق والمقارنة والاستنباط ، وهى من وسائل العقل الحديد ، لا العقل البليد .

ولن نتعرض لما صنعه المعتزلة فى قضية «العقل» من تبسيط أو تعقيد ، فلهم — على كل حال — فضل لا ينكر فى إثارة كثير من الجدل والنقاش وتوسيع مدى الحرية فى التفكير الدينى ، ولكن ذلك لا يحمل منصفاً على أن يتغافل عن قضية العقل فى الإسلام من أوله ، فينكر ذلك فى سهولة ، كأن الناس لا يعلمون . .

ولقد سبق إلى اتهام الإسلام بالجمود مفكر فرنسى كان له من الإسلام والمسلمين موقف ، وكان للشيخ محمد عبده منه موقف ، فعرف إمامنا كيف يسكته ، وكيف يرده إلى محجة الصواب .

ذلك المفكر الفرنسى هو أرنست رينان . وقد أبان له الأستاذ الإمام فى منطق سديد ، ودليل مقنع ، واستشهاد وثيق بالتاريخ أن الجمود ليس فى الإسلام أصلا ، ولا هو منه فى شيء ، وإنما كان الجمود علة طارئة على المسلمين لضعفهم وسوء أحوالهم ، ولا يصح أن يتهم الإسلام بتهمة ليست فيه ، ومن الظلم البين أن تنسب تهمة فى المسلمين — إبان ضعفهم — إلى الإسلام .

وما أصدق الشيخ محمد عبده وهو يقول فى هذا الجمود : « كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا إلى أن يتنـــاولوا غيرها ، وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى إليهـا ، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها » .

ويفسر لنا الأستاذ الإمام سر ذلك الجمود بقوله : « وأما ماوصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام . وقد رأيت صورة الإسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع إليه شيء مما ذكرت ، ولا مما تنبأ بسوء عاقبته رينان وغيره . وإنمـا هى علة عرضت على المسلمين عند ما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ، ساكنت عقيدة الإسلام فى أفئدتهم ، وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم وإطفائهـا لنور الإسلام من عقولهم هو السياسة . . . » .

ويتصل بتهمة الجمود فى الإسلام تهمة الجبرية المؤدية إلى التواكل. وهى تهمة لم يكف المستشرقون والأوربيون عن ترديدها فى أية مناسبة، ولا يزالون إلى اليوم يديرونها كأنها نغمة حبيبة إليهم! وقد أشرنا إلى دفاع المؤرخ سيديو عن هذا الاتهام.

وقد حمل المستشرقون المغرضون ما أصاب المسلمين من تأخر فى عصور انحطاطهم على تلك الجبرية الإسلامية، التى زعموا أنها عطلت فيهم حرية الإرادة وحرية العمل والتصرف، وجعلتهم آلات مسيرة، وأشاعت فيهم التواكل والرضا بالمكتوب المقدر ما دام لا مفر منه ولا معدى عنه.

وذهب بعضهم إلى أن هذه الجبرية فى الإسلام كانت سلاحاً ذا حدين، ففى عهود الغزوات والفتح الأولى للإسلام كان المسلمون يتساقطون فى الميدان باسمين لأنهم يستشهدون فى سبيل الله، وأن المصير الذى سيلقونه فى هذه المعارك مكتوب عليهم من قديم الأزل، فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون. فأفادت هذه الجبرية فى نشر الإسلام على مقياس واسع. ولكنها هى نفسها قد استحالت بعد عصور الفتح والجهاد إلى معول هدام، يثبط العزائم ويقعد النفوس عن العمل ما دام كل شىء مقدراً مكتوباً. فخارت بذلك أنفس المسلمين وضعفت عن الكفاح.

وممن أطال القول فى ذلك الكاتب الأمريكى «واشنجتون أرفنج» مؤرخ سيرة الرسول. والحق أن نسبة ما منى به المسلمون المتأخرون من تواكل إلى الدين الاسلامى هى اتهام غير منصف لهذا الدين، وإساءة تاويل لعقائده ومبادئه. فليس فى الآيات التى تدل على حتمية الموت

والمصائب ما يوحي بتواكل أو تراخ أو نكول عن السعي إلا عند أصحاب العقول البليدة ، والهمم الخامدة . والدين الذى يدعو إلى العمل ، والسعي ، ويقرر أنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، لا يعقل أن يكون ديناً تواكلياً . على أن حتمية القضاء لا تمنع من السعي والمشي فى مناكب الأرض والأكل من رزق الله . وقد حض النبي عليه السلام على العمل — حتى ولو كان وضيعاً — وأشار إلى أن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده .

والواقع أن ما جاء فى القرآن الكريم من آيات تدل على القضاء المحتوم كان فى موضعه الملائم ، فقد تكون الآية للتحميس والحث على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وحينئذ يكون الفرار من الموت فراراً من قضاء الله . وقد تكون الآية لتهوين المصيبة على النفس وتخفيف وقعها . وذلك مثل قوله تعالى : « قلْ لنْ يُصيبَنا إلا ما كتبَ الله لنا هُوَ مَوْلانا ، وَعلى الله فليَتَوكَّل المؤمنونَ » . وقوله : « قلْ إنَّ الموْتَ الذى تَفرونَ منهُ فإنهُ مُلاقِيكمْ » . وقوله : «ما أصَابَ مِنْ مُصيبَةٍ فى الأَرْضِ ولا فى أنفُسكمْ إلا فى كِتابٍ مِنْ قبْلِ أنْ نَبْرَأهَا ، إنَّ ذَلكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ » .

فالقرآن — أو الإسلام إن شئت — بعيد أن يحمل المسلمين على تواكل ، وهو الذى يدعوهم فى مواطن كثيرة إلى العمل ، والسعي ، والسير فى الأرض . وما فيه من آيات القضاء والقدر إنما هو علاج النفس وتسكينها ، لا إغفال الأعمال وتهوينها . فى الإيمان بالقضاء طمأنينة تجعل ثمرة السعي فى الحياة لذيذة حين النجاح ، وسائغة عند الإخفاق ، وبهذا يتم التوازن فى سعادة الإنسان .

على أن الحتمية فى الإسلام ليست شيئاً مفروضاً لا سبيل إلى تغييره ، ففى القرآن نفسه آية واضحة صريحة فى صميم هذا المعنى : وهى قوله تعالى : « إنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ » . فهناك إذن تغيير ، وهو يتنافى مع الحتمية اللازمة . وهناك إذن تغيير من الله متى صحت إرادة الإنسان وعزمه على التغيير . وليس هناك مجال لتوسيع الحرية الإنسانية أكثر من هذا المجال .

ولواشنجتن إرفنج فى الجبرية الإسلامية كلام له خبء ، وقد يكون من الضرورة معرفته لمعرفة مدى تهافته من ناحية ، والرد عليه من ناحية أخرى . وقد تصدى للرد عليه فى قوة بيان ، واستقامة منطق ، وحسن إقناع المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل فى فصل من فصول كتابه القيم « حياة محمد » . ولا بأس من إيراد كلام إرفنج هنا . قال : « والقاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الإسلامية هى : الجبرية . وقد أقام محمد جل اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شئونه الحربية . فقد قرر أن كل حادث يقع فى الحياة قد سبق فى علم الله وتقديره ، فكتب فى لوح الخلد قبل أن يبرأ الله العالم ، وأن مصير كل إنسان وساعة أجله قد عينت تعييناً لا مرد له . فلا يمكن أن تتقدم أو تتأخر بأى من مجهودات الحكمة الإنسانية أو بعد النظر . بهذا الاقتناع كان المسلمون يخوضون غمار المعارك دون أن ينال منهم الخوف . فما دام الموت فى هذه المعارك هو عدل الاستشهاد الذى يسرع بصاحبه إلى الجنة ، فقد كانت لهم الثقة بالفوز فى حالى الاستشهاد أو الانتصار .

« هذا المذهب الذى يقرر أن الناس غير قادرين بإرادتهم الحرة على

اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب ، يعتبره بعض المسلمين منافياً لعدل الله ورحمته . وقد تكونت عدة فرق جاهدت وما تزال تجاهد لتهوين هذا المذهب المحير وإيضاحه . لكن عدد هؤلاء المتشككة قليل ، وهم لا يعتبرون من أهل السنة .

« وقد ألهم محمد مذهب الجبرية من وحى الساعة ، فكان ذلك إلهاماً معجزاً لحدوثه فى أنسب أوقاته . فقد حدث تواً بعد غزوة أحد المنكودة التى ذهبت بأرواح عدد غير قليل من أنصاره ، ومن بينهم عمه حمزة ، عندئذ ، وفى برهة وجوم وهلع تحطمت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به ، أصدر هذا القانون ينبئهم أن لا مفر لإنسان من أن يتوفى ساعة أجله ، فى فراشه كان أو فى ساحة الوغى .

« أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ، ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشياً ، إذ يقنعهم عن يقين بالفىء لمن يبقى ، والجنة لمن يموت ! . . ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب ، لكنها احتوت كذلك السم الذى يقضى على سلطانه . فمنذ اللحظة التى كف فيها خلفاء النبى عن أن يكونوا غزاة فاتحين ، ومنذ أغمدوا سيوفهم بصفة نهائية ، بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام . فقد أرهف السلم أعصاب المسلمين ، كما أرهفها المتاع المادى الذى أباحه القرآن ، والذى يفصل فصلا حاسماً بين مبادئه ودين المسيح : دين الطهر والإيثار . فصار المسلم ينظر إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدر الله عليه وما لا مفر منه ، وما يجب الإذعان له واحتماله ما دام كل جهد وكل حكمة إنسانية عبثاً لا نفع له . ولم تكن

قاعدة « أعن نفسك يعنك الله » مما يرى أتباع محمد تنفيذه ، بل كان عكسها نصيبهم . . . . » .

وزاد إرفنج فوازن بين الصليب والهلال فى مجال القوة والأخذ بالسيف ، فخرج بذلك من البحث إلى ما لا صلة به ، وما لا تخفى مراميه على الفطن اللبيب . . . .

وفى كلام إرفنج كثير من المغالطات ، فليس فى الإسلام ولا فى القرآن ولا فى سيرة الرسول القولية والفعلية ما يشير أدنى إشارة إلى « أن كل جهد وكل حكمة إنسانية عبث لا نفع له » . وآيات القرآن بين أيدى المستشرقين وأيدينا تشهد بأن عمل الإنسان لا يضيع ، وسعيه لا يذهب سدى . والله تعالى يقول : « إِنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » . ويقول : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . ويقول « إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

فكيف تضيع الجهود والمساعى فى دين ضمن الله فيه لكل عامل جزاء يوفاه ، وأجراً يلقاه ؟ وعدلا يراه ؟

وانظر إلى مغمز إرفنج فى كلامه هنا عن القرآن ، فقد زعم أن النبى « أصدر هذا القانون » يريد بذلك أن يكرر النغمة الاستشراقية التى تقول إن القرآن من تأليف النبى وكتابته ، وأنه ليس وحياً أوحى به من الله .

وانظر أيضاً إلى زعمه أن آيات القضاء والقدر فى القرآن صدرت بعد غزوة أحد ، مع أن كثيراً من تلك الآيات نزل فى مكة ، قبل غزوة أحد ببضع سنين .

من هذا نرى أن الإسلام متهم على كل حال ، ومتهم حين لا يكون هناك موضع للاتهام ! ومتهم حين يكون التخلف أو التأخر من المسلمين أنفسهم ، لا فى الإسلام نفسه . وهنا ترى الأصوات ترتفع من كل مكان ، وترى التهم توجه فى غير اعتبار ولا مقدار .

وما ذنب الإسلام نفسه حين ضعف بنوه لعوامل سياسية وغيرها كثيرة يعرفها المستشرقون ، فيقال إن الجبرية الإسلامية هى التى أضعفت المسلمين ؟ وأين كانت تلك الجبرية الإسلامية حين كان المسلمون يفتحون كل شبر من الأرض ، ويقتحمون على الملوك والملكيات القديمة أسوارها، فلا يقف فى سبيلهم شىء ، ولا تصدهم قوة ولا عدة ؟

وأين كانت الجبرية الإسلامية حين كان المسلمون فى أوج مجدهم وقوتهم ، لأن عوامل الانحلال لم تكن بعد قد سرت إلى كيانهم ؟

إن هذه « الجبرية » التى يزعمونها عاملا من عوامل ضعف الإسلام لم تمنع الإسلام ولا المسلمين من أن يذهبوا فى الفتوح وفى نشر الدعوة وما يتبعها إلى أبعد الغايات .

فإذا ضيقت على الناقدين الجاحدين الخناق فى تهمة باطلة ، فما أسهل ما يدخلون عليك من باب آخر ؛ كأنهم يعدون كل فضل وفضيلة فى الإسلام باباً يستحق أن يوصدوه ، أو يفتحوه للنقاش والمماحكة والجدال ، على قدر ما تسمح الأحوال . . !

وأغرب ما قرأت فى أبحاث المتصلين بالشرق والإسلام ذلك البحث الذى قرأته للمستر فيليب أيرلاند بوزارة الخارجية الأمريكية ، وقد ألقاه فى مؤتمر عالمى ضمن جماعة من رجال الاختصاص العالمى فى مسائل

المشرقيات والإسلام . وقد لف الباحث ودار ، ورجع إلى القديم والحديث ، وإلى اليونان والعرب ، وإلى البادية والمدينة ليقول لنا إن الإسلام ليس ديناً ديمقراطياً ، ولكن توجد ظروف ملائمة جداً للديمقراطية فى داخل الإسلام ! ! وأنكر وجود ديمقراطية سياسية فى الإسلام ، فقال : « أما وجود ديمقراطية سياسية فى الإسلام فمسألة فيها جدال . وأرى لجملة أسباب أنها لا توجد فيه الآن . . ! » ويعنى صاحبنا بالآن سنة ١٩٥١ !

ولا أجد من طرائف التعبيرات مثل هذا التعبير الذى يثير ألواناً من الإشفاق على هذا الباحث ، إن لم يثر أشياء أخرى غير الإشفاق . . .

« فالآن » وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان منذ ظهور الإسلام لا توجد ديمقراطية سياسية فى هذا الدين ، وقد يفتح الله بعد ذلك على أوربى أو أمريكى أو أى شخص من جنس غيرهما فيدخل لنا فى الإسلام هذه الديمقراطية السياسية المفقودة !

ونسى المسكين أو تناسى أن الإسلام ليس من صنع إنسان ، ولا من عمل محمد كما يزعمون حتى يقال إنه فاتته أمور وأمور . ونسى المسكين أو تناسى أن الديمقراطية السياسية إذا لم تكن قد جاءت فى الإسلام عن طريق الوحى والقرآن والسنة التى تفسره ، فلا خير فيها أن تجىء معارة ومستوردة من تجارب الذين يتشدقون بها وهم لا يعرفون أن يطبقوها لا فى بلادهم ولا فى البلاد التى نكبت بالاستعمار . . .

وما أسهل الاجتراء على الحق ، وعلى واقع التاريخ ، وعلى وضح النهار إذا احتاج النهار إلى دليل حين يقرر لنا هذا الباحث : «إن عنصراً

واحداً هاماً مفقود . فإن العائق الدينى — كما هو موجود فى الإسلام — يحول دون تساوى الأفراد الذين ينتمون إلى ديانات مختلفة . فصفة الإسلام الشاملة تقتضى أن يدخل الأفراد فى دار الإسلام كى يحصلوا على مراكز متساوية ، قبل أن يصح لهم أن يشتركوا فى الديمقراطية السياسية »

وكأن هذا الباحث الأمريكى استقل على نفسه هـذا الفضل بأن يكون وحده متهما للإسلام فى قضية الديمقراطية السياسية ! فالتجأ إلى الأستاذ المستشرق الإنجليزى هـ . ا . ر . جب لينتزع منه عبارة يلتقيان فيها معاً بالاتهام . قال الكاتب الأمريكى : « وبشأن الحكم أونوع النظام الديمقراطى فأنا أميل إلى الاتفاق مع هـ . ا . ر . جب فيما خلص إليه من أنه « حتى المساواة النظرية بين جميع المسلمين ليست كافية لإثبات الديمقراطية السياسية فى الإسلام ، مع نص القرآن فى جملة مواضع على تأييد هذه المساواة » .

فما هى هذه الديمقراطية السياسية التى يشيرون إليها ؟ أهى هذه المبادىء والنظريات والتشريعات التى اقتضتها ، فى زمن من الأزمان ، طبيعة الحكم والناس والأرض فى بلاد اليونان ؟

لقد كانت ديمقراطية اليونان لبلد دون بلد ، لأنها قامت على احتياجات محلية مما تقوم عليه الشئون والأمور لاعتبارات ، ولم تكن كل ولايات الإغريق فى النظم الديمقراطية سواء بسواء . أما الديمقراطية التى جاء بها الإسلام ، فهى فى الحق لم تكن نظريات ولا مناقشات ولا جداول انتخابات ، ولا أموراً شكلية تضيع حق ناخب أو تعطى حقاً لغير صاحبه ،

ولكنها سياسة عملية ، وروح فى التشريع نجدها فى القرآن الكريم ، وفى الحديث ، وفى سياسة الرسول والخلفاء الراشدين .

فالمساواة بين « الناس » مبدأ إسلامى إنسانى مقرر صريح فى قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ ، لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

والمسئولية الشخصية مبدأ مقرر صريح فى الإسلام وفى القرآن : دستور المسلمين بدليل قوله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الأَوْفَى » وقوله : « كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » ، وقوله : « وكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاه طَائِرَهُ فى عُنُقِه » ، وقوله : « وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . فكل نفس تسأل عما عملت ، وتحاسب على ما فعلت ، ولا يؤاخذ إنسان بذنب غيره : « ولا تُسألون عمَّا كانوا يعملون » .

والشورى فى الإسلام مبدأ صريح مقرر ، يؤمر النبى به . ويدعى إليه ، حتى لا يعفى منه راع ولاوال ولا حاكم . يقول تعالى : « وَشَاوِرْهُم فى الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله » . ويقول فى الصفة الواجبة للمسلمين : « وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

ومسئولية الجماعة فى الإسلام — كمسئولية الفرد — مبدأ مقرر صريح مبنى على التضامن . فالخير عام يصيب منه الناس جميعاً ولو كان السبب فيه واحداً أو قلة . والشر عام يصيب الناس جميعاً ، وتقع سوء

مغبته على المجموع ، وخاصـــة حين لا يتناهى أفراده عن منكر فعلوه : « واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

هذه المبادىء الإسلامية الصريحة المقررة لا تكفى لأن تجعل الإسلام ديناً ديمقراطياً لو استقامت النظرة ، وزالت العصبية ، ومحيت الغشاوة .. ولكنها كافية فقط لأن يقول عنها مستر أيرلاند : « إنه توجد ظروف ملائمة جداً للديموقراطية فى داخل الإسلام » !!

وقاتل الله الأغراض حين تحاول أن تعمى عن الحقائق أو تشوه من جمالها . ففضيلة الإسـلام فى المساواة التامة بين الناس تنقلب فى نظر المغرضين إلى رذيلة يرمى بها الإسلام ، ويتهم بها أكبر اتهام . وهذا هو الكاتب الشيوعى لوسيان كليموفتش يقول فى ادعاء باطل : « إذا كان الإسلام قد جمع صفوف الناس ووحد بينهم عن طريق العقيدة الدينية ، فهو لم يعمل فى الوقت نفسه على القضاء على الفوارق الاجتماعية . . . بل لقد ساعد الطبقات العليا على استعباد الطبقات الدنيا » .

فأين هذا الاستعباد الطبقى الذى لم يقل به واحد ممن أنصفوا الإسلام ؟ وما كانت سيرة النبى وخلفائه وصحابته الكبار إلا مثالا رائعاً للديمقراطية التى لا تعرف نظام الطبقات الامتيازى . وإذا كان النـاس « درجات عند الله » كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم ، فليس معنى هذا هو النظام الطبقى الذى يجعل لطائفة من الناس مزية من فضـل على طائفة أخرى . ولقد كان النبى عليه السلام يحاول دائماً أن يكسر من نزعة النظام الطبقى أو الطائفى الذى لم يكن منه بد فى كيان المجتمع العربى قبل الإسـلام . ألم يؤاخ عليه السلام بين المهاجرين والأنصار ؟ ألم يتساو الناس جميعاً

أمام الإسلام فى الحقوق والواجبات ، فلم ترفع عن بعض الطبقات بعض التكاليف إيثاراً لها بمزية فضل ، ولم تكلف بعض الطبقات فوق ما كلفته طبقة أخرى تفوقها فى الحياة أو الأصل أو الثراء . لأن شرط المساواة هو الإطلاق والتمام ، يحتمل فيها المتساوون المغارم كما يحملون المغانم ، وإلا كانت « طبقية » لا يقبلها الإسلام .

وما كانت رسالة الخليفة عمر فى القضاء إلا دستوراً قضائياً عالياً يحمل فيها يحمل معنى التسوية بين المتقاضين . فلم يكن لشريف فضل محل على وضيع ، ولم يكن لغنى امتياز فى التقاضى على فقير . وما أروع عمر وهو يقول فى رسالته : « ساو بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك » .

وإذا كان الكاتب المتعصب يحاول من وراء كلمته أن يثير مسألة الرقيق فى الإسلام ، فهى ثورة فى غير أوان ، أو عاصفة فى فنجان . فمسألة الرق فى الإسلام مفروغ منها ، لأن الإسلام لم يتعد فى ذلك ما جرى عليه العرف الدولى بين المتحاربين فى القديم والحديث ، فأسير الحرب رقيق حتى يفتدى ، وقد كان يطول الزمن بأسرى الحرب الواقعين فى يد المسلمين إلى أن يتاح لهم من يفديهم حتى ترد لهم حريتهم . وما أكثر ما حض الإسلام والقرآن على فداء الأسرى ومكاتبة الأرقاء .

« فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإمَّا فِدَاءً » . . « والَّذِين يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أيْمَانُكُم فَكَاتِبُوهُم إن عَلِمْتُمْ فِيهِم خَيراً ، وآتوهُم مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتاكُمْ » .

وما أكثر ما حض الإسلام على تحرير الرقاب وعتق الأرقاء، حتى جعل ذلك كفارة عن كثير من الذنوب، ففي القتل الخطأ أوصى القرآن بتحرير الرقبة: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤمناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ». وفى باب الأيمان تكون الكفارة «إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ». وفى باب الظهار من أبواب الأحوال الشخصية تكون الكفارة تحرير الرقبة: «والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا».

على أن إقرار الإسلام للطبقات — مع الحد من طغيان طبقة على طبقة — هو النظام الديمقراطى المستقيم الذى يعترف بكفاية الأفراد ومزاياهم واختلاف مجالات نشاطهم تبعاً لاختلاف مواهبهم. والتفضيل الذى أقره الإسلام هو التفضيل الذى جاء نتيجة لاختلاف المزايا، والمواهب، والعمل، والنشاط، لا التفضيل الذى جاء تبعاً لاختلاف المواريث وغيرها مما لا يد فيه لكسب الإنسان.

* * *

وأعجب ما عزى إلى الإسلام من اتهامات المبطلين تهمة تأخر الدراسات السيكولوجية عند المسلمين ونسبة ذلك إلى حال المرأة المسلمة «الذى جعل من المتعذر وقوع دراسات دقيقة فى الشعور، كتلك التى أفرد لها فى الغرب طراز القصة البالغ الحظوة».

هكذا يقول المستشرق الفرنسى مؤرخ الفلسفة الإسلامية «كارادى فو» فى كتابه عن «الغزالى» الذى ترجمه شيخ مترجمى العرب فى عصرنا الحديث المرحوم عادل زعيتر، وكان لى حظ مراجعة الترجمة عن الفرنسية، لأن

فقيد العروبة كان قد ترك الترجمة الأولى بغير مراجعة ولا معاودة نظر ، إلى أن أعجلته المنية عن إتمام قصده . ولقد وقفت عند هذا النص العجيب الذى غفل — وهو مشغول بالاتهام — أن المرأة لم تكن فى أوربا — حتى إلى ما بعد عصر النهضة — أحسن حالا من المرأة فى البلاد الإسلامية .

وحسب الإسلام فخراً أن يعترف أهل النصفة من غير أهله بأنه قد رفع مرتبة المرأة إلى ما لم يكن لها فى مجتمعات العصور الأولى للإسلام . وأنه أعطاها من الشخصية والحقوق والمسئولية المدنية مثلا ما لم يكن للمرأة الرومانية ، أو ما ليس حتى للمرأة الأوربية فى العصر الحديث .

فالزوجة فى الإسلام تملك التصرف التام المطلق فى أموالها بيعاً وشراء ورهناً وإجارة وكل ما عدا ذلك من سائر التصرفات المالية ، على حين لا تتمتع الزوجة الأوربية أو الأمريكية بهذا الحق الذى يستأثر به الزوج دونها .

فقد نص القانون الفرنسى على عدم أهلية المرأة المتزوجة ، فلا تباشر عقوداً مدنية بغير إذن زوجها . وقد ترتب على ذلك النتائج التالية : (١) أن أى عقد يصدر عن الزوجة لا يكون صحيحاً إلا بإذن الزوج . (٢) إذا رفض الزوج إجازة أى عقد صدر عن زوجته ، فليس لأى سلطة أخرى إجازة ذلك . (٣) إذا صدر عن المرأة المتزوجة أى عقد فهو باطل فى حق الزوج الذى له هو وحده حق طلب إلغائه . وقد لجأ القانون الفرنسى إلى إنكار هذه الأهلية فى التصرفات على المرأة المتزوجة نتيجة لما استقر فى الأذهان من سلطة الرجل الزوجية ، وهى سلطة لا يجوز أن

تزحمها سلطة أخرى ، ولو كان فى ذلك إهدار لحق إنسان . كما أن المشرع الفرنسى قصد من وراء ذلك إلى حماية المرأة بسبب عدم أهليتها الطبيعية .

هذا هو موقف التشريع الفرنسى المدنى الحديث من المرأة إذا كانت زوجة ، أما التشريع الإسلامى ـ الذى يحلو للمغرضين افتراء التهم عليه ـ فقد أعطى المرأة الحرة الرشيدة البالغة العاقلة حرية التصرف فى أموالها بسائر أنواع العقود السالبة والموجبة ، بكراً كانت أم ثيباً ، متزوجة أم غير متزوجة .

ولا علاقة مانعة بين زواج المرأة المسلمة وبين مالها إطلاقاً ، فلها البيع والشراء ، والرهن والتجارة ـ إلا إذا أضاعت مباشرتها للتجارة حق زوجها ، أو لحقه ضرر أدبى أو مادى ـ فليس له منعها ، وليس لأحد غيره أن يأذن لها فى ذلك أو يرفض .

والمرأة المتزوجة فى الإسلام ملزمة بعقودها ، شأنها فى ذلك شأن أى شخص يتعاقد مستوفياً الشروط الشرعية لإجراء العقود .

وقد لفتت نظرة الإسلام والنبى عليه السلام إلى المرأة نظر المنصفين ، لأنها تختلف مثلا كل الاختلاف عن نظرة « سان بون أفانتير » الذى قال موجهاً الخطاب إلى تلاميذه ومريديه : « إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً ، بل ولا كائناً وحشياً . وإنما الذى ترون هو الشيطان بذاته ، والذى تسمعون هو صفير الثعبان ... » .

لا ! لا ! لم يسىء الإسلام الظن بالمرأة إلى هذا الحد الذى يهدر كرامتها ، ويسىء إلى إنسانيتها وإلى مكانتها فى المجتمع ، ولكنه عرف

ما لها وما عليها ، وانزلها منزلها الصحيح فى نظرة عادلة معتدلة ، لم ينس فيها طبائع الإنسان ، ولا غرائز الحيوان . . .

ولا تنتهى سلسلة الاتهامات للإسلام ما دامت النفس البشرية على حالها من نزعات التعصب والأغراض والأهواء والمرامى القريبة والبعيدة على السواء . وقد تختلف التهم فى طبيعتها وقدرها ومدى صدقها وكذبها ، ومبلغ النية فى إثارتها ، وما وراءها من أسباب وأهداف . .

ولعل أسخف هذه الاتهامات التى لا تستحق المناقشة ما أثاره الكاتب « فينيكوف » فى كتابه « خرافة الدعوة المحمدية فى ضوء علم الأجيال الوصفى » ، فقد زعم أن الدعوة الإسلامية ـ التى كان النبى عليه السلام رسولا بها ومبشراً ـ تتعارض مع أصول العلم الحديث .

ولعل هذه التهمة لا تنصب على الإسلام وحده ، بل يشاركه فيها كل دين من الأديان السماوية ، فى نظر أصحاب المذاهب الإلحادية . وما لنا إليهم من سبيل . . .

الفصل الثامن

القرآن فى قفص الاتهام

لقد تعرض الإسلام ونبي الإسلام - منذ أقدم العصور - لحملات ما يزال يبدىء القول فيها ويعيد قوم لهم مآرب خاف أو غير خاف من وراء هذه الاتهامات .

والقرآن هو كتاب الإسلام المقدس ، ودستور المسلمين الذى أنزله الله على النبي ليبين للناس كل شىء مما فيه صلاح معاشهم ومعادهم . فكيف يسلم القرآن من الاتهام ؟ أو كيف تخطئه فى الخصومة السهام ؟

لقد تعرض القرآن منذ أقدم العصور لمطاعن ومفتريات وشُبه واتهامات ، قصد بها الذين أثاروها أن يشككوا فى صحته ، وفى إعجازه ، وفى صدوره عن الله ليصلوا بذلك - فى ظنهم - إلى ما قد يريدون من التشكيك فى الإسلام ورسالته السماوية الإنسانية الصالحة لكل زمان وكل مكان .

ولم يكتف الطاعنون على القرآن بما أثاروه حوله فى أيام نزوله ، كقولهم : « إنْ هَذَا إلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانهُ عليْهِ قومٌ آخَرونَ » ، وقولهم : « إنْ هَذا إِلَّا سِحْرٌ مُبينٌ » ، وغير ذلك مما هاجموا به الدعوة الإسلامية فى إبان ظهورها ، بل استمرت الحملات والمطاعن ، تنتقل من جيل إلى جيل ، ومن ميدان إلى ميدان . فتارة يتهمون القرآن بالتناقض ، وتارة باللحن ، وأخرى بفساد النظم ، ورابعة بإنكار الإعجاز

إلى ماشاء الهوى من ألوان التهم ، حتى لم يتركوا عيباً إلا نسبوه إلى القرآن وألصقوه به . ولكن محاولاتهم كانت تبوء دائماً بالخذلان ، ولم تتعد أصواتهم حناجرهم ، لأنها أصوات ضعيفة ، متهاوية متهافتة . وكان الإسلام ينتشر مع ذلك فى سرعة عجيبة فائقة كأنّ البقاع من الأرض تطوى له .

ولقد سجل « ابن قتيبة » شيئاً من مطاعن الجاحدين على القرآن ، وأشار إليها ، ورد عليها ردوداً قوية مفحمة لا يثبت معها باطلهم ، ولا تقف أمامها مماحكاتهم . وكان له فى ذلك عبارة يقول فيها : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغــوا فيه وهجروا ، واتبعوا « ما تَشَابَه منهُ ابتغاءَ الفِتْنةِ وابتِغَاءَ تأويلِهِ » بإفهام كايلة ، وأبصار عليلة ، ونظر مدخول . فحرفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله . ثم قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة فى اللحن ، وفساد النظم ، والاختلاف . وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه فى القلوب ، وقدحت بالشكوك فى الصدور .

« ولو كان ما نحلوا إليه على تقديرهم وتأويلهم لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتج عليه بالقرآن ، ويجعله العلم لنبوته ، والدليل على صدقه ، ويتحداه فى موطن بعد موطن على أن يأتى بسورة من مثله ، وهم الفصحاء والبلغاء ، والخطباء والشعراء ، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد ، واللدد فى الخصام ، مع اللب والنُّهى ، وأصالة الرأى ، وقد وصفهم الله بذلك فى غير موضع من الكتاب ، وكانوا مرة يقولون : هو سحر ، ومرة يقولون : هو قول الكهنة ، ومرة يقولون : أساطير الأولين .

« ولم يحك الله تعالى عنهم ، ولا بلغنا فى شىء من الروايات أنهم جدبوه[1] من الجهة التى جدبه منها الطاعنون » .

ولقد وجد الطاعنون مجال القول متسعاً فى اختلاف القراءات ، فجعلوا من ذلك موضوعاً للاختلاف فى القرآن . . . وقالوا إن الله يقول عن القرآن : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً » مع أن الاختلاف حاصل والصحابة ومن بعدهم كانوا يختلفون فى الحرف ، والقراء يختلفون . وكأنهم يريدون أن يقولوا : إن كان هذا كلام رب العالمين ، فأى شىء بعد هذا الاختلاف تريدون ؟ وأى باطل بعد اللحن والخطأ تبتغون ؟

نعم قالوا ذلك وأكثر منه . وقالوا إن التناقض فى القرآن موجود : ففى سورة الطور : « وأَقْبَلَ بَعضُهُمْ على بَعْض يَتَسَاءلُونَ » وفى سورة المؤمنون : « فَلا أَنْسَابَ بَيْنهمْ يَومَئِذٍ ولا يَتَسَاءلُونَ » . ففى الآية الأولى إثبات للتساؤل ، وفى الثانية نفى له . . .

وغفل هؤلاء الجاحدون أن بين الحالتين فرقاً يقتضى التساؤل فى واحدة ، وعدم التساؤل فى الأخرى ، فإنه إذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، تقطعت الأرحام ، وبطلت الأنساب ، وشغلوا أنفسهم عن التسآل ، وصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . فإذا نفخ فيه نفخة أخرى قاموا : « يَنْظُرونَ ، وَأَقْبَلَ بعضُهُم على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ » ، وكان تسآلهم يدور حول هذا السؤال : « مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المرْسَلُونَ » .

---

(١) جديوه = عابوه .

وشمر الجاحدون فى جمع طائفة من هذه الحالات فى القرآن ليقيموا منها قضية الاختلافات والمتناقضات ! تماماً كهؤلاء المبطلين من الغربيين المتعصبين الذين صورهم المستشرق المسلم ليوبولد فايس ، بصورة قضاة متهمين قد دبروا الأحكام ، قبل الأخذ فى مناقشة الخصومة والخصام ...

ولو حكم هؤلاء المغرضون عقولهم وضمائرهم قبل صب الاتهام ، لوجدوا مسألة التناقض فى القرآن ودعوى وجوده فيـــه ، باطلة من أساسها ، لأنهم يأخذون بظاهر القول ، ولا يتدبرن ما وراء الآيات ، وما بينها من صلات ومناسبات أو مفارقات . .

فمن آيات التناقض التى يثيرونها فى القرآن قوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وَهُم يَسْتَغْفِرونَ » ، وقوله على أثر ذلك فى آية أخرى من سورة الأنفال نفسها : « وَمَا لَهُم أَلَّا يُعَذِّبَهُم اللهُ » . وعند نظر الحق لا يبدو هناك تناقض ولا شبهة . فإن النضر بن الحارث كان قال : « اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلينا حِجَارةً مِنَ السَّمَاءِ أو ائْتِنَا بِعَذَابٍ أليم » يريد : أهلكنا وأهلك محمداً ومن معه عامة ، ولا تبق على واحد من الجميع . . . فأنزل الله تعالى قوله : « وَمَا كَان اللهُ مُعَذِّبَهُم وهُم يَسْتَغْفِرونَ » أى وفيهم قوم يستغفرون الله ـ وهم المسلمون . ويدل على ذلك قوله تعالى قبل ذلك : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فيهم » . أما تعذيبهم وهم يصدون عن المسجد الحرام فقد كان بعد خروج النبى عنهم .

وبمثل هذه الاتهامات كان يُرمى القرآن ، بلبلة للأذهان ، ومدا لأسباب البهتان ، وصرفاً للناس عن الإيمان .

والعجيب أنهم كانوا يأخذون بأوهى الأسباب للاتهام بالتناقض فى القرآن ، فكل باب أو منفذ يتوهمون فيه وصولا إلى أغراضهم ينفذون منه ويطرقونه ، ولو كان فيه ما فيه من سخف وبطلان .

فأضافوا إلى ما زعموه من قائمة التناقض قوله تعالى فى سورة الرحمن : « فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إنسٌ وَلا جَانٌّ » ، وقوله تعالى فى سورة الحجر : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أجمعين عَمَّا كانوا يَعْمَلُونَ » ، وقالوا : كيف يكون سؤال ولا سؤال ؟ ! ولو أنهم عقلوا لأدركوا أن يوماً مثل يوم القيامة — وهو ما هو من حساب سنينا فى الدنيا — يسأل فيه الناس ، ويوقفون على ذنوبهم ويحاسبون عليها . وذلك موقف . فإذا انتهت المسألة ولزمت الحجة ، وانشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، انقطع الكلام وذهب الخصام ، واسودت وجوه قوم وابيضت وجوه آخرين ، وعرف أصحاب الشمال من أصحاب اليمين . وهذا موقف آخر . فأين التناقض إذن فى موقفين يختلفان ؟ .

ولم يقصروا اتهامهم على رمى القرآن بالتناقض والاختلاف ، بل رموه بوجود « المتشابه » الذى يضيع معه الهدى والتبيان . وكأنما خفى عليهم طريق العرب فى التعبير ، ومذاهبهم فى الإيجاز والاختصار ، والإطالة والإطناب ، والإشارة إلى الشىء حتى ولو عن طريق الرمز ، وإغماض بعض المعانى ، وإظهار بعضها ، مماشاة لفنون القول ، ومطابقة لمواطن الأحوال ومقتضياتها .

وما أصدق ابن قتيبة وهو يقول : « ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس ،

وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر . ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة » .

وفطن قوم من الجاحدين إلى إعجاز القرآن من ناحية بلاغته وفصاحته ، فأرادوا أن يهجموا عليه من أحسن وجوهه ، وأفصح جهاته . فاتهموا عبارات منه بأنها لم تقع فى أفصح وجوه البيان وأحسنها ، وزعموا أنهم وجدوا من ذلك ما لا يرضاه الفصحاء من أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها . . !

وعابوا — تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً — قوله تعالى فى سورة يوسف : « فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » وقالوا — ستراً لماحكتهم — إنما كان الأولى أن يستعمل هنا « الافتراس » لأنه فعل السباع ، وكان الأفصح أن يقال : « فافترسه الذئب » . وقد رد عليهم الإمام الخطابي من علماء القرن الرابع الهجرى قائلا : « فأما قوله تعالى « فأكله الذئب » فإن الافتراس معناه فى فعل السبع : القتل وحسب . وأصل الفَرْس : دق العنق . والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظماً . وذلك أنهم — يعنى إخوة يوسف — خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة . والفَرْس لا يعطى تمام هذا المعنى . فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل ، على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال فى الذئب وغيره من السباع » .

وهكذا استمرت الاتهامات ضد القرآن بالتناقض والتشابه والإشكال بضعة عشر قرناً من الزمان إلى أن جاء المستشرقون والمتعصبون الغربيون

وغير الغربيين فى العصور الحديثة فأثاروها ، وأعادوها جذعة كما يقول المثل العربى .

وأطرف ما ورد من ذلك قول لوسيان كليموفتش الكاتب الروسى المعاصر الذى جاهر الإسلام والقرآن بأشد أنواع العدوان . اسمعه وهو يقول : « . . . ويقول القرآن : إن الله خلق جميع الحيوانات من الماء ، ثم يذكر بعد ذلك فى سبع آيات مختلفات أن الله خلق الإنسان خلقاً ، ثم هو فى الوقت نفسه يناقض نفسه بنفسه سبع مرات ، فيقول فى مرة إن الله خلق الإنسان من التراب . وفى مرة ثانية من الطين . وفى مرة ثالثة من الفخار . ورابعة من الصلصال . وخامسة من صلصال كالفخار . وسادسة من حمأ مسنون . ومرة سابعة من الماء .

وهى كلها متناقضات تؤكد أن تأليف القرآن لم يتم فى زمن واحد ، ولا على يد مؤلف واحد[1] » .

فأى فرق إذن بين اتهامات الأمس واتهامات اليوم ؟ اللهم إن بضعة عشر قرناً لم تكن كافية لمحو الأحقاد ، وشفاء ما فى الصدور .

ولم ينفرد لوسيان كليموفتش الكاتب الروسى المتعصب برمى القرآن بالتناقض والاختلاف فيه من دون الطاعنين . وإذا كان لوسيان يطعن عن جهل وحقد وتعصب ، ويرمى إلى هدم الإسلام والقرآن لأغراض سياسية تتفق ومذهبه ، فما بال رجل معروف بالتحقيق والتحليل مثل المستشرق جولد تسيهر — وهو صاحب دراسات إسلامية عميقة — يغمز

---

(١) المسلمون تحت الحكم الشيوعى . للاستاذ محمد سامى عاشور

القرآن ويرميه بالتناقض وعدم التماسك ؟ فتراه يقرر فى الفصول الأولى من بحثه عن « العقيدة والشريعة فى الإسلام » : « إن القرآن هو الأساس الأول للدين الإسلامى ، وهو كتابه المقدس ، ودستوره الموحى به . وهو فى مجموعه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافاً جوهرياً ، والتى طبعت كلا من العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام » .

وأى اختلاف جوهرى هذا الذى يجده جولدتسيهر فى القرآن إلا إذا كان مثل تلك المتناقضات المزعومة التى زعمها قوم منذ أكثر من ألف عام ؟ وهى ترجع إلى سوء فهمهم أكثر مما ترجع إلى القرآن نفسه ووحدته التامة ،وكيانه المتجانس الذى لايشك فيه إلا جاحد أو مكابر ؟ .

وإذا كانت المتناقضات التى زعمها الملحدون من قديم قد تنطلى على بعض العقول مع ظهور بطلانها فما بالها اليوم تلقى عند المستشرقين والمتعصبين هذا القبول وهم يعلمون أسباب إثارتها ووجوه الرد عليها ، وهى وجوه قوية مقنعة وقعت لهم فى مؤلفات عربية كثيرة لابن قتيبة والخطابى والجرجانى والرمانى وغيرهم ؟

اللهم إن هـذا التناقض ليس إلا فى عقول هؤلاء المتعصبين وفى رؤوسهم وفى كلامهم الذى لا يبدو على سياق واحد من التماسك والتناسق والوحدة فى الرأى . خذ عبارة جولد تسيهر السابقة تجده يقرر أن القرآن هو كتاب الإسلام المقـدس « ودستوره الموحى به » وليس بعد هذا صراحة فى كون القرآن وحياً من الله . ولـكن الرجل تغلب عليه منازع القوم ومنازع الهوى فى مواطن أخرى من كتابه الذى لا ننكر مع ذلك قيمته ، فيقول مثلا عن مزايا الآيات المكية : « فى العصر المكى جاءت

المواعظ التى قدم فيها محمد الصور التى أوحتها إليه حميته الملتهبة ، فى شكل وهمى خيالى حاد تلقائى ذاتى . وهو فى هـذا العصر — يعنى المكى — لا يسمع صلصلة سيفه ، ولا يتحدث إلى محاربين أو رعايا مسـالمين ، بل يظهر لجموع معارضيه ومناقضيه العقيدة السائدة فى نفسه عن قوة الله » .

أرأيت أن القرآن هنا فى هذا الموطن ليس وحيـاً من الله ، ولـكنه من عمل محمد . وأن ما فيه من الصور التى « قدمها محمـد » ليس إلا من وحى الحمية الملتهبة : لا الإلهام المشرق ؟ ؟

ولا يكتفى جولد تسيهر بهذا ، بل يقول فى موطن آخر : « إن بعض عناصر القرآن المسيحية نعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد أو الروايات المتواترة المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة » .

فهنا إشارة لا تخفى على اللقن اللبيب بأن القرآن من عمل محمد ، وأنه أدخل فى القرآن بعض العناصر المسيحية . وذلك يقودنا إلى اتهـام آخر سنتحدث عنه فيما بعد فى موضعه ، وهو اتهام النبى عليه السلام بأنه أخذ فكرة التوحيد ، وجلبها إلى الشريعة الإسلامية ، وأضاف إليها كثيراً من التعاليم المسيحية .

ويكاد يلتقى المستشرقون والـكتاب الغربيون على أن القرآن من كلام محمد ، حتى الذين لانعرف عنهم سوء نية ، ولاخبث مقصد ، مثل الـكاتب الأمريكى « بودلى » ، الذى أنصف الرسول عليه السلام إنصافاً نحمده له. ولعل فكرة « الوحى » ونزوله على البشر لا تتفق مع مواريثهم الفـكرية ومعتقداتهم التى ظلوا تحتها زماناً طويلا . استمع إلى بودلى وهو يتحدث فى بساطة عن « محمد فى قومه » ، فيقول : « وقلما أفكر فى محمد كرسول الله

الذى أصبح أتباعه سبع سكان الأرض . وقلما أفكر فيه كملهم للجنود الذين امتدت فتوحاتهم امتداداً لم يتجاوزه إلا جيوش الأمبراطورية البريطانية . وقلما أفكر فيه كمؤلف للقرآن : ذلك الكتاب العجيب من الأحكام والدين والنظم . . . » .

فمحمد هنا كمحمد عند أى مستشرق آخر : مؤلف للقرآن ، وليس القرآن من كلام الله أو وحياً أوحى به إليه .

وقد أراد المتعصبون أن يؤكدوا دعوى أن القرآن من عمل النبي محمد وتأليفه بادعاء آخر وهو أن النبي عليه السلام لم يكن أمياً ، وكان يعرف القراءة والكتابة ، وأنه كان يتظاهر بهذه الأمية تسويغاً لدعواه بأن القرآن من عند الله ، وتوصلا إلى القول بالإعجاز . . .

فالقرآن من عمل محمد الذى كان يقرأ ويكتب ، وهو ليس معجزاً لأنه من عمل بشر ، وما عمله البشر فلا يستحيل فى العقل والواقع أن يؤتى له بمثيل . . . وقد جاء هذا الكلام فى « معجم الإسلام » لتوماس باتريك هيوز الذى يقول : « ومع ذلك فمن المحقق أنه — يعنى النبي عليه السلام — كان يتظاهر بأنه يجهل القراءة والكتابة لكى يجعل إنشاء القرآن معجزاً » .

فإذا قلت لهؤلاء المغرضين المبطلين إن الثابت المحقق من تاريخ النبي أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، وأنه لو كان يعرف ذلك وحاول كتمانه وإخفاءه فلا يستطيع أن يظل على ذلك عمره كله لا ينكشف أمره ، ولا توحى به بعض دلائل الأحوال فماذا هم قائلون ؟

ومن دلائل الأحوال أنه كان العباس عم النبي عليه السلام بمكة قبيل

غزوة أحد ، فرأى بعينيه تجمع قريش وتأهبها للخروج للحرب : أعنى حرب المسلمين . فكتب العباس إلى النبي يخبره بذلك ، وأرسل الكتاب مع رجل من بنى غفار . فلما وصل الكتاب إلى النبي فك ختمه ، ودفعه إلى «أبيّ بن كعب» ليقرأه عليه ، واستكتم النبي أبيًّا . ولو كان النبي يعرف القراءة لما دفع بكتاب سرى يحوى أخباراً سرية إلى رجل يقرؤه بمثل هذه العلانية التى تضيع معها حكمة الأسرار فى الحروب .

ولعل من الإشادة بفضل المنصفين ـ فى مسألة عز فيها الإنصاف ـ أن نشير إلى ما كتبه الكونت هنرى دى كاسترو مؤلف كتاب «الإسلام» فى هذه المسألة : « إن محمداً ما كان يقرأ ولا يكتب . بل كان ـ كما وصف نفسه مراراً ـ نبياً أمياً . وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه . ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس ، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان . على أن القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار ... »

هذا كلام طيب فى الدفاع عن تهمة أيسر ما فيها إلقاء الكلام بلا برهان . ويضاف إلى هذا الدفاع أن النبي عليه السلام كان له خصوم ، وكانوا يعلمون كل شىء عن حياته ونشأته وسيرته ، فلو عرفوا أنه كان من الكتاب الذين كانوا فى ذلك الزمان يعدون عدا ، ويحصرون حصرا ، لما ترددوا فى إذاعة ذلك وتعليق النتائج عليه . ولكن مبلغ اتهامهم للقرآن أنهم قالوا إنه : « أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

وما أصدق توماس كارليل وهو يستنبط هذا الاستنباط السليم

الصحيح وهو يتحدث فى كتابه : « الأبطـال » عن محمد بن عبد الله . قال لا فض فوه : « ثم لا ننسى شيئاً آخر ، وهو أنه — أى النبي محمداً — لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهـد إذ ذاك فى بلاد العرب . ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها » .

* * *

وكل ناحية من نواحى القرآن لاتسلم من اتهامات المبطلين وادعاءاتهم ، حتى القصص القرآنى كان موضعاً للتشكيك فيه . فإذا تعـارضت مقولة تاريخية مع قصة قرآنية ، فالتاريخ هو الصـادق الذى لا يرقى إليه شـك ولا اتهام ، ولو كان على أضعف الأقوال وأقلها رجحانا ! حتى القصص التى كان لها صلة بأسباب نزول الآيات . خذ مثلا قصـة امتحان قريش لرسول الله صلى عليه وسلم ، فقد كانت قريش دائماً بالمرصـاد للنبي تجبهه وتحرجه بالأسئلة والإلحاح عليه بها . ففى مرة أرادوا به الحرج حتى يثبتوا عليه العجز ، ليصلوا من ذلك إلى إنكار نبوته . وأرسلوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لها : سـلا هؤلاء الأحبار عن محمد وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ما ليس عندنا من أخبار الأنبياء وصفاتهم . فخرج رسولا قريش ، حتى بلغا المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصـفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله . وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لها أحبار اليهود : سلوه عن ثلاثة نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل

وإن لم يفعل فالرجل متقول . فانظروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول : ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح : وما هي ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على مكة راجعين من عند أحبار اليهود ، فقالا لقريش : يا معشر قريش ! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ! قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فانظروا فيه رأيكم .

وجاءت قريش الرسول فقالوا : يا محمد ! أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب . وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح : ما هي ؟

فقال لهم النبي عليه السلام : أخبركم بما سألتم عنه غداً ، ولم يستثن . فانصرفوا عنه . فمكث عليه السلام خمس عشرة ليلة لا ينزل الله عليه وحياً ، ولا يأتيه جبريل . حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشر ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه . فشق على رسول الله تأخير الوحي ، كما شق عليه ما أرجف به أهل مكة . ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف ، وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه .

وكان عتاب الله لنبيه في هذه الآية : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ » .

أما إجابة القرآن عن أسئلة قريش فكانت في شأن الفتية : « أَمْ حَسِبْتَ

أنَّ أصحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانوا مِنْ آياتِنَا عَجَباً » .
وفى شأن أمر الرجل الطواف : « وَيَسألونَكَ عَنْ ذى القرنَين قلْ سَأَتْلُو عليكُم مِنْه ذِكراً ، إنَّا مَكَّنَّا لهُ فِى الأرْضِ ، وآتَيْناهُ مِنْ كلِّ شىْءٍ سَبَباً فأَتْبَعَ سَبَباً » الخ القصة . وفى شأن السؤال عن الروح : « وَيَسْألونَكَ عَن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّى ، وَما أوتِيتُم مِنَ العِلمِ إلا قَلِيلا » .

هذه هى قصة امتحان قريش للنبى ، وهذه هى الملابسات التى أحاطت بنزول الآيات التى سلفت الإشارة إليها . ولكن بعض المتعصبين أنكروا هذه القصة — كما أنكروا كثيراً غيرها من القصص — ولم يكن الإنكار مستنداً إلى علم أو رواية من التاريخ ، ولكنه إنكار يحمل وراءه معول الهدم فى القرآن كله ، وإثارة الشكوك فيه .

ومن الحق أن نشير إلى أن الدكتور إ . ولفنسون لم يجد مايحمل على الشك فى هذه القصة فذكر فى كتابه : « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » : « وينفى بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه . والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً فى نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين . وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية . وهى أن فى التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف . ومن هذه القصة أخذ أحبار اليهود الأسئلة التى وجهوها للرسول بواسطة وفد قريش . ويؤيد هذه القصة ما ذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود ، إذ لو وجد منهم فى مكة ، ما أوفد قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أحبار

اليهود عن شأن النبي ، وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم » .

* * *

وتهمة أخرى كان يتلقاها القرآن من الجاحدين فيما تلقاه. من تهم تجل عن الحصر . فلقد جهد جولد تسيهر نفسه ليثبت عن طريق البحث العلمى الذى يدعيه أن القرآن بحالته التى كان عليها فى عهد الرسول كان عاجزاً عن مواجهة التطورات العقلية فى الجماعة الإسلامية الناشئة على العصور . ويحاول جولد تسيهر أن يلبس لباس العلماء الباحثين وهو يجرعنا هذه التهمة الباطلة فى كأس براقة . . . فيزعم أن نسخ آيات من القرآن فى عهد النبي والإتيان بغيرها وإدخالها فى النص القرآنى هو فى ذاته دليل على أن القرآن بعد أن التحق النبي بالرفيق الأعلى لم يعد صالحاً لمواجهة الحالات الجديدة الطارئة على المسلمين . وندعه هنا يتكلم بنص عبارته : « إن الرسول نفسه قد اضطر بسبب تطوره الداخلى الخاص ، وبحكم الظروف التى أحاطت به ، إلى تجاوز بعض الوحى القرآنى إلى وحى جديد فى الحقيقة ، وإلى أن يعترف أنه ينسخ بأمر الله ما سبق أن أوحاه الله إليه . فإذا كان الأمر كذلك فى عصر النبي ، فمن الأولى أن يكون كذلك — بل أكثر من ذلك — عند ما تجاوز الإسلام حدود البلاد العربية ، وتأهب لكى يصير قوة دولية . إننا لا نفهم الإسلام بلا قرآن ، لكن القرآن وحده بعيد عن أن يكفى لمواجهة العقلية الإسلامية التامة فى سيرها التاريخى » .

هذا كلام قد يبدو فى ظاهره الصحة لو أن جولد تسيهر لم يغفل أو يتغافل عن حقيقة واضحة لا تخفى على ذى غرض ، وهى أن القرآن كان

فيه نسخ الآيات والنبي حي يتلقى الوحي كل يوم ، وينزل عليه من آي الله ما تقتضيه المناسبات والأسباب الطارئة التي كان لا بد فيها من تتابع الوحي إلى أن يكمل . فلما توفي عليه السلام ، كان الوحي قد كمل ، والدين قد تم ، والرسالة قد أكملت على خير الوجوه وأصحها وأصلحها للمسلمين . فلم يعد هناك وحي ، وبالطبع لم يعد هناك نسخ . وكان القرآن في العرضة الأخيرة قد تم كيانه ، وانتقل من طور الوحي المتتابع المنجم على حسب الضرورات إلى طور الكتاب المقدس التام الكامل الشامل دستور الإسلام والمسلمين .

ولقد كان الله جل شأنه حين ينزل القرآن على نبيه يعلم مدى صلاحيته لكل حالة حاضرة ومستقبلة ، ولم يكن ـ سبحانه ـ ليخفى عليه أن محمداً سيدركه الموت ، وأن الوحي سينتهي ، وأن حاجات الناس ستتجدد . . . ولم يكن الله ليشرع للساعة الحاضرة ، والحالة الطارئة ، ولكنه ـ عز شأنه ـ كان يشرع للإنسانية على توالي السنين .

وإغفال هذه الحقيقة ـ عمداً أو عن غير عمد ـ هو الذي قاد جولد تسيهر وقاد غيره من المستشرقين المتعصبين إلى مثل هذه الأباطيل .

ويكرر جولد تسيهر هذه النغمة العجيبة في كتابه : « العقيدة والشريعة في الإسلام » فيقول : « . . . وبالجملة فإن الحياة الفقهية الإسلامية ـ سواء في ذلك ما يتعلق بالدين أو الدنيا ـ أصبحت خاضعة للتقنين ، والقرآن نفسه لم يعط من الأحكام إلا القليل . ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها مما جاء من الفتوح ، فقد كان مقصوراً على حالات العرب الساذجة ، ومعنيا بها ، بحيث لا يكفي لهذا الوضع الجديد » .

والحكم على القرآن بأن ما فيه من أحكام كان لمواجهة الحالات الساذجة عند العرب هو حكم فيه من الجور والبعد عن الإنصاف والنزاهة ما لا يتكلف معه عناء الرد عليه . إلا أن كلمة عابرة قصيرة قد تصحح هنا وهما بنيت عليه أمثال هذه الأحكام الجائرة . فليس من المعقول لأى دستور أو قانون مهما كانت تفصيلات مواده أن يتعرض لكل حالة طارئة ، أو حادثة عارضة . فإن الحوادث لا تتناهى ، ولا يمكن أن يوضع نص قانونى لمواجهة كل حالة ، ومقابلة كل احتمال ، يخطر أو لا يخطر على البال . . . !

ومن هنا جاءت السنة النبوية المطهرة مفسرة للقرآن ومكملة له . ومن هنا كان القياس فى استنباط الأحكام ، واستخراجها من الأدلة والنصوص ، لأن الأحوال لا تحصى .

عود الى دعوى التناقض فى القرآن :

ذكرنا قبل صفحات طائفة مما زعمه المبطلون من تناقضات فى القرآن . ووقفنا عند عبارة للمستشرق جولد تسيهر فى هذا المقام . ولم تكن تلك هى العبارة الوحيدة التى غمز بها الرجل القرآن واتهمه بالتناقض ، ففى كتابه مواطن عديدة يبدىء ويعيد فيها الكلام حول هذا الاتهام ، كأنه يحاول بذلك التكرار التوكيد وتقرير التهمة فى الأذهان .

اسمعه وهو يقول فى بحث عن « نمو العقيدة الإسلامية وتطورها » :
« ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من المتناقضات . ولم يصلنا من المعارف الدينية ، الأكثر

أهمية وخطراً ، إلا آثار عامة نجد فيها — إذا بحثناها فى تفاصيلها — أحياناً تعاليم متناقضة ، ورسالة النبي الدينية تنعكس فى روحه بألوان مختلفة باختلاف الاستعدادات السائدة فى نفسه . إذن كان لزاماً على علم الكلام المنسق أن يتولى منذ أول الأمر حل الصعوبات النظرية الناشئة عن مثل هذه المتناقضات » . . .

يا سبحان الله ! كأن كتاب الله كان من التناقض والاضطراب وعدم استقامة الكلام بحيث يحتاج بعد فترة من الزمان إلى من يقوم اعوجاجه ، ويقيم نصه ، ويصلح اضطرابه ، ويوفق بين متناقضاته . . . ! ثم من يتولى هذا العمل الذى يعد معاونة لله فى رسالته ؟ هم علماء الكلام ! نعم هم علماء الكلام بما أدخلوا فى العقيدة الإسلامية من جدل ومماحكات ومناقشات ومسائل كلامية تافهة ، تبلبل العقل أكثر مما تغذيه ، وتضل طالب الهداية أكثر مما تهديه .

على أن ما أثاره علماء الكلام من خلاف لن يستقيم به دين ، ولن يصح به مذهب . فالعقيدة الإسلامية كانت قد صحت فى أيام الرسول ، وفهمها العربى المسلم فهماً سليماً بسيطاً ، لا تشويش فيه ، ولا اختلاط بمذاهب وثقافات غير إسلامية وغير عربية . . .

فكون صفات الله هى الذات الإلهية ، أو هى طارئة عليها ، لا يقدم فى قضية الإيمان والإسلام شيئاً ، ولن ينال الله مثل هذه الخلافات ، ولكن يناله التقوى والفهم والتعبد والإخلاص ، ليتحقق له سبحانه وتعالى معنى العبودية اللازمة للخلق فى قوله تعالى : « وَما خَلقتُ الجِنَّ

وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ » .

وكثيراً ما نهى علماء المسلمين عن إثارة مثل هـــذه الخلافات والمناقشات الكلامية ، صوناً للعقيدة الإسلامية السمحة أن يصيبها التعقيد والاختلاف . وقد رفض إمام مثل الإمام مالك بن أنس أن يجيب عن سؤال خاص بكيفية استواء الله على العرش ، منعاً لبلبلة الخواطر ، وتخليصاً للإسلام من شبهات المناقشات والمجادلات .

ويحاول جولد تسيهر — مرة أخرى فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الإسلام » أن يثير مسألة المشكل والمتشابه فى القرآن الكريم ، ليخلص من ذلك إلى الغمز فى القرآن وتكرار اتهامه بالتناقض . وهى قضية لم يتركها علماء الإسلام الأولون ، بل وقفوا لها بالمرصاد ، وتنبهوا لكل ما يثار من الكلام حولها ، وأعدوا لها الردود المفحمة . ويكفى أن نشير هنا إلى فضل ابن قتيبة فى هذا الباب . فقد نطب الرجل علمه العميق ، وقلمه القوى لرد شبهات المبطلين والمتهمين فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » . وهو من أوائل الكتب العربية فى رد هجمات الطاعنين على كتاب الله العزيز .

فتكرار جولد تسيهر وإعادته القول فى مسألة التناقضات فى القرآن هو كلام لا تبين فيه براءة البحث ، ولا نزاهة العلم . وخاصة حين تراه يقول فى موطن آخر من كتابه الذى سلفت الإشارة إليه : « ومثل هذا النقد للقرآن كان صواباً خلال الجيل الأول التالى لظهوره ، إلى درجة أنه لم يكتف بأن يهتم خصوم الإسلام بكشف مواطن الضعف فيه فقط ،

بل ذهب الأمر إلى درجة أن البحث فى التناقضات الظاهرة فى القرآن أصبح موضع حديث بين المؤمنين أنفسهم . وسنرى فيما بعد فى مثال بشأن تعليم أساسى فى الدين ، وهو مسألة الجبر والاختيار ، كيف أن الأدلة للرأى وضده قد استقيت من القرآن نفسه » .

وهكذا لا يدع الرجل فرصة تمر إلا انتهزها — أو اختلسها — ليغمز القرآن فى كيانه وفى بنيانه ، وليصيبه فى وحدته وتماسكه . كأنه موكل بذلك فى الكتاب كله . ولا أدرى أى عيب إذا ماوجد الباحثون والفقهاء فى القرآن أدلة للرأى وضده ؟ أئذا صح أن يكون ذلك عيباً فهل هو عيب القرآن نفســه أم عيب هؤلاء الباحثين والفقهاء والمستنبطين الذين لا يفهمون الكلام على صحيح وجوهه ؟

وما ذنب القرآن الكريم إذا فهم بعض الفقهاء والعلماء من آية : « الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى » شيئاً ، وفهم منها بعضهم شيئاً آخر ؟ ما ذنب القرآن إذا فهم الاستواء هنا — من بعض العلماء — بأنه معنوى بمعنى الاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

أو إذا فهم الاستواء — من بعض العلماء — بأنه استواء حقيقى مادى ، كما يستوى الإنسان على كرسى مثلا ؟ .

وما ذنب القرآن الكريم إذا نتج عن هذا الفهم والتأويل المتباين لآية — أو لفظة — من القرآن تباين فى قضية التشبيه ، والتجسيم ، والكيفية ، والبلكفية ، والذات ، والصفات وغيرها مما أثاره

علماء الكلام ، وأطالوا الكلام فيه بما لم يكن من مصلحة المسلمين والإسلام ؟ ؟ .

أما مسألة « الجبر والاختيار » بالنسبة إلى أفعال الإنسان ، والعدل والظلم بالنسبة إلى صفات الله ، فقد وجد فيها المستشرقون مجالا واسعاً للكلام . ولقد أتاحت لهم الخصومات القديمة بين أهل السنة وأهل الاعتزال أن يثيروا مسألة الحرية الإنسانية والعدالة الإلهية بطريقة تجعل القرآن مجالا للتناقض والاضطراب ، وهو كل ما يهدفون إليه .

اسمع ما يقوله جولد تسيهر — أيضاً — فى هذا المجال : « لكن النفس الورعة التقية لها أن تتساءل : هل يمكن أن يتصور المرء ظلماً أفدح من الجزاء على أعمال تتم بإرادة ليست تحت القدرة الإنسانية ؟ وهل يصح أن يحرم الله الناس من كل حرية واستقلال فى أعمالهم ، وأن يحدد سلوكهم حتى فى أدنى التفاصيل ؟ وأن يحرم الخاطىء والآثم من إمكان فعل الخير ؟ وأنه كما يقول : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ » . وأنه مع هذا كله يعاقبهم إذا ما عصوا ، ويقذف بهم إلى العذاب الخالد ؟ .

« هكذا كان كثير من أتقياء المسلمين المخلصين لله يرون واجباً أن يتصوروا الله إلاها مستبداً . وذلك مبالغة منهم فى الشعور بالخضوع له ، الذى يرون الكتاب يؤيده فى أكثر من موضع تأييداً قوياً . من الحق أن القرآن يشمل كثيراً مما يقرب لنا قساوة قلب فرعون ، كما يشمل طائفة الأحكام العامة التى تؤدى — بتعابير مختلفة — إلى فكرة مؤداها

أن الله إذا أراد هداية أحد وسّع صدره للإسلام ، وأنه من يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا ، كأنما يريد أن يَصَّعَدَ فى السماء . كما نجد فى موضع آخر : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ اللهِ » . وليس فى الإسلام على ما نرجح مسألة مذهبية يمكن أن نستخلص بشأنها من القرآن تعاليم متناقضة كتلك التى نبحثها الآن » .

وقد تكون القضية قضية اختلاف بين علماء المسلمين فى فهم النصوص والآيات حول موضـــوع معين ، أما تصويرها بتهمة وجود التناقض فى القرآن ، فذلك عمل لا يصدر عن منصف . فإن الناس من قديم الأزل يفكرون فى مسألة القضاء والقدر ، ويعدونها مشكلة المشكلات ، وقد أثارها مفكرو الأغريق فى قصة « أوديب » وحكم الآلهة عليه حكماً قاسياً لم يجد منه مفراً ، ومازال المفكرون يثيرونها فى كل زمان ومكان . وقد حيرت المسلمين ـ كما حيرت غيرهم ـ لأنهم لم يعْدوا أن يكونوا ناساً من النـاس . وعرضت لهم فيها مشكلات أثارت بينهم خلافاً كما يثار الخلاف حول كل مشكلة . ولـكن المؤمنين حلوا المشكلة بما فيه صلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة ، ووفقوا بين النصوص ، وفهموها على أصح وجوه الفهم ، وخلصت لهم بذلك عقيدة فى القضاء والقدر وحرية الإنسان والجبر والاختيار ، لا تعطل إرادة الإنسان ولا حريته ، ولا تنكر علم الله بما سيسلـكه الإنسـان من أحد النجدين اللذين أمام الإنسان : وهما طريقا الخير والشر اللذان يسلـكهما المرء باختياره وبمحض إرادته وبدافع من عقـله ، لا سلطان ولا إكراه ، ولا قسر . وإلا لـكان الله ظالماً . تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

الفصل التاسع

النبي فى معرض الاتهام

رأينا كيف كان الإسلام ، وكيف كان القرآن : دستور هذا الدين ، غرضاً لسهام المغرضين والمبطلين . وكيف كانت الحملات تنظم ، والمهاجمات تدبر فى خطة عجيبة مريبة ، للنيل من الدين وكتاب الله الكريم . ولم يكن من المعقول أن يسلم نبي الإسلام ، من مرامى السهام ، ومواقع الاتهام .

فالأهداف التى تصوب إليها السهام كانت تجتمع فى الدين نفسه ، وفى الكتاب الذى أنزله الله ، وفى صاحب الدعوة والمبلغ رسالة ربه ، وفى المسلمين أنفسهم الذين يمثلون هذا الدين فى كل عصر ، وفى كل بقعة من الأرض .

وقد يكون تنظيم الخصومة والجحود والعداوة للإسلام ناقصاً لو سلم مرمى واحد من مرامى هذه السهام . والجاحد حين يدبر حملة للهجوم يتخير لها الأغراض . ولن يكون فى استراتيجية الهجوم غير هذه الأغراض الأربعة لمن يريد أن يتطاول على مقام الإسلام .

وقد قال الجاحدون فى الإسلام وكتابه ما قالوا ، مما سلفت الإشارة إليه . فلم يبق إلا أن نعرض ما رموا به نبي الإسلام .

والحق أن المتعصبين من المستشرقين لم يدعوا — وهم فى موقف

الاتهام — منفذاً ينفذون منه إلى القدح فى الرسول إلا دخلوه، وتابعهم فى ذلك الحاقدون على الإسلام، ممن يحبون التفرقة بين الأديان.

وعجيب جداً أمر هؤلاء المغرضين. فإن القرآن والإسلام لم يغفلا أمر التكريم والاحترام الواجبين لأصحاب الرسالات من الرسل والأنبياء. ولن تجد لنبي أو رسول ذكراً فى القرآن إلا وقد أحاطته هالة من الإجلال والأكبار.

وفى سورة مريم من سور القرآن الكريم بعض صفات عيسى بن مريم عليهما السلام، وهو لا يزال سراً فى ضمير الغيب، أو طفلا فى المهد، أو نبياً يبلغ رسالة ربه: « فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ». « قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ».

وفى صفة إبراهيم عليه السلام يقول الله تعالى — فى سورة مريم أيضاً —: « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ».

وفى صفة موسى عليه السلام يقول الله تعالى: « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ».

وفى صفة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام يقول تعالى فى سورة مريم أيضاً : « واذْكُر فى الْكِتَابِ إسْمَاعِيلَ إنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعدِ وَكانَ رَسُولا نَبِيًّا ، وكانَ يَأمر أهْلَهُ بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ وكان عِنْدَ رَبِّهِ مَرضيًّا ».

وفى صفة إدريس عليه السلام يقول تعالى فى السورة نفسها : « واذكُرْ فى الْكِتَابِ إدْرِيسَ إنَّه كان صِدِّيقاً نَبِيًّا ، وَرَفَعْنَاهُ مَكاناً عَلِيًّا ».

وفى صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب يقول تعالى : « فلما اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لهُ إسْحَاقَ وَيعْقُوبَ وكُلاً جَعَلْنا نَبِيًّا ، وَوَهَبْنا لهُمْ مِنْ رحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ».

وخص الله بعض الأنبياء بسور كاملة من القرآن ، لكل نبى سورة تحمل اسمه ، وتصف بلاءه فى سبيل تبليغه دعوة ربه، وتعرضه فى أكرم المعارض التى تليق بالأنبياء الذين اختصهم الله وكرمهم بالرسالات . فهناك سورة يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، ونوح . بل هناك سورة الأنبياء التى قص الله فيها - فى إيجاز بليغ - طائفة من قصص إبراهيم ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وزكريا ، ويحيى وغيرهم ، مع عرض شائق لفضائل النبوة فيهم ، وما خصهم الله به من قدر وتشريف وتكريم . كقوله تعالى : « قُلْنا يا نارُ كُونى بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبراهِيمَ ، وَأرَادوا بِهِ كَيْداً فَجَعلنَاهُمُ الأخسرِينَ ، وَنجّيْناهُ وَلوطاً

إلى الأرْضِ التى بارَكْنَا فيها للعَالمِينَ ، وَوَهبنَا لهُ إسْحَاقَ وَيعْقوبَ نَافِلةً وَكُلاً جعَلنَا صَالِحينَ ، وَجَعَلنَاهمْ أئمَّةً يهْدُونَ بأمرِنَا ، وَأوْحَيْنا إليْهمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وإقامَ الصَّلاةِ وإيتَاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لنَا عابِدِينَ » . وكقوله تعالى عن أيوب : « وأيُّوبَ إذْ نادَى ربَّهُ أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأنْتَ أرْحمُ الرَّاحمِين ، فاسْتَجَبْنا لهَ فكشَفْنا ما بهِ مِنْ ضُرّ ، وآتَيْنَاهُ أهْلهُ وَمِثْلهُم مَعهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى للعَابدِينَ » . وكقوله عن إسماعيل وإدريس وذى الكفل : « وإسْمَاعِيلَ وإدْرِيسَ وذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ، وأدْخَلنَاهمْ فِى رَحْمَتِنَا إنَّهمْ مِنَ الصَّالحينَ » . وكقوله عن زكريا : « وزَكرِيا إذْ نادَى ربَّه رَبٌّ لا تذَرْنِي فرْداً وَأنتَ خيْرُ الوَارِثينَ ، فاستَجبنَا لهُ وَوَهبْنا لهُ يَحْيي وأصْلحنَا لهُ زَوْجهُ ، إنَّهمْ كانُوا يُسارِعُونَ فى الخَيْراتِ ، ويَدعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وكانُوا لنَا خاشِعينَ » .

فأنت ترى من هذه الآيات ومن عشرات وعشرات غيرها مما ليس هنا مجال ذكره كيف تناول القرآن الكريم : دستور الإسلام والمسلمين ، وصف الرسل والأنبياء السابقين على محمد عليه السلام ، وكيف أضفى عليهم من صفات التكريم والتشريف ما يليق بأدب القرآن ، وهو فى معرض الحديث عن أصحاب الأديان .

ومما يدعو إلى الأسف أن تجد التعصب الأعمى عند المستشرقين

والغربيين قادهم إلى ترك أبسط قواعد المجاملة ، فتجردوا من نزاهة العلم ، كما تجردوا من منابع الذوق السليم ، وأنستهم العصبية البغيضة صفات العلماء حين يتعرضون لحياة العظماء ، فادعوا على النبي كل تهمة ، واتهموه بكل عيب ، ورموه بكل مغمز ، مما لا ينال من جلالة قدره ، وسمو رسالته قدر ما ينال من الثقة بهم والاطمئنان إلى أحكامهم .

* * *

وأول ما اتهموا به النبي محمداً عليه السلام أن شريعة الإسلام لم تكن وحياً من الله . وأن محمداً سرق الأفكار الرئيسة فيها من ديانات ومذاهب وأشخاص أخر . . . وأنه اقتبس بعض تعاليم المسيحية فى أثناء رحلته إلى الشام حينما كان يتجر فى أموال للسيدة خديجة بنت خويلد قبل مبعثه .

وحار هؤلاء المستشرقون فى تحديد من سرق النبي عنه أو اقتبس منه ؟ وذهب كل منهم مذهبه فى الاتهام . فقال المستشرق مرجوليوث : « ويظن أن الجزء الخاص بالمسيحية فى القرآن قد تعلمه النبي من صهيب الذى أسلم قديماً ، وقد كان رومياً من أهل الموصل » . ثم عاد الرجل مرة أخرى ليقول إن محمداً تعلم ما فى الكتاب المقدس على يد جابر بن عبد الله مولى بنى عبد الدار ، وكان جابر هذا صائغاً من صواغ اليهود فى مكة ، فكان يجلس هو ويهودى آخر اسمه ياسر ، يقرآن الكتاب المقدس فى أثناء اشتغالهما بالتجارة ، وكان النبي يمر عليهما ويستمع منهما .

أما الكاتب القس كانون سل مؤلف كتاب « حياة محمد » فقد زعم أن النبي أخذ فكرة التوحيد والحنيفية السمحة ونبذ عبادة الأوثان عن الأربعة العرب الذين كانوا يبحثون عن دين إبراهيم قبيل مبعث محمد عليه

السلام، وهم: ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل . وكان هؤلاء الأربعة يستنكرون على قريش عبادة الأصنام، وقد خلصوا فى يوم عيد لقريش عند صنم من الأصنام، وكانت قريش مجتمعة حول الصنم، فقال بعض هؤلاء الأربعة لبعض: ما صنم نطيف به من حجر، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فأنكم والله ما أنتم على شىء. ثم تفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية: دين إبراهيم. ويقول القس كانون فى هذا: «ويظن أن محمداً أخذ منهم هذه الفكرة». وأخذ بعد ذلك يروى حكاية زيد، وما كان من تعبده فى غار حراء ويقول: «وقد كان له تأثير عظيم فى محمد الذى كان يجل شأنه، ويقدره قدره».

وبالغ المغرضون فى ذلك وغالوا حتى خرج بهم عن الإنصاف، وأدى بهم إلى مجافاة حقائق العلم. فقد قال بعضهم، ومنهم درمنجهم مؤلف كتاب «حياة محمد» إن ورقة بن نوفل ترجم الأناجيل إلى العربية، وأن محمداً اطلع على هذه التراجم، أو قيلت له. وهذا زعم باطل لم يؤيده العلم والتاريخ، وإنما هو ضرب من الظن غير المقطوع به؛ واليقين على أن ورقة لم يترجم شيئاً من الكتاب المقدس، وبالتالى لم يطلع محمد على شىء من هذه التراجم الموهومة ... ويكفى هنا ما قاله الأستاذ «نولدكه» من أن محمداً عليه السلام لم يكن يعرف الأسفار القديمة.

وقد تصدى المستشرق الأمريكى «بودلى» فى كتابه «سيرة الرسول» لتكذيب الزعم القائل بأن محمداً سرق ما فى الإنجيل من تعاليم، وأنكر

وجود ترجمة كاملة للكتاب المقدس قبل ظهور الرسول . وذكر أن الترجمات العربية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد عهد النبي ببضعة قرون . وقال في ذلك بنص عبارته : « وعلى الرغم من وجود معتقدات وتعاليم قديمة يقوم محمد بتفسيرها الآن ، فالزعم بأنه قد سرق الإنجيل زعم باطل ، فما رآه أبداً . والقول باطلاعه على ترجمة الإنجيل الناقصة التي قام بها ورقة بن نوفل لا يضع أمامه إنجيلا كاملا ليراه ، وحتى هذه الترجمة لم يرها . فإن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد موت محمد بقرون » .

ولكن بودلي مع إنصافه هنا ، وتكذيبه القاطع لتهمة السرقة والاقتباس من الكتاب المقدس يعود بعد سطور ليقول إن محمداً تلقى تعاليم المسيحية خلال رحلاته . وخاصة حين قابل الراهب بحيرا ، وورقة ، وقس بن ساعدة حبر نجران

على أن الثابت من تاريخ حياة الرسول عليه السلام أنه لم يقابل الراهب بحيرا إلا مرة واحدة أثناء خروجه إلى الشام ، وكان في سن العاشرة حينذاك . فهل تكفي مقابلة واحدة عاجلة مثل هذه للتلقي والأخذ وقبول التعاليم ووعيها واستيعابها في مثل تلك السن الباكرة ؟ ؟ .

ويعود بودلي بعد ذلك بقليل ليقول : « أن محمداً امتص نظرياته وتطبيقاته من حلقات العابدين ، والإنصات إلى الوعاظ المرشدين . وما درس سطراً واحداً مكتوباً في كتاب مقدس » .

ولم يثبت بالدليل القاطع أن النبي عليه السلام كان يكثر الترداد قبل مبعثه على حلقات الواعظين والمرشدين . فما كان هناك حلقات للوعظ

والإرشاد . وإذا صح أنه كان هناك مجالس للحنفاء من أمثال زيد بن عمرو ، وغيره ، فإن النبي عليه السلام لم يعرف عنه أنه كان يرتادها أو يغشاها أو يتردد على أصحابها ليحادثهم فى شئون دينية أو غير دينية . وهذا تاريخه وسيرته قبل بعثته ليس فيه ما يشير إلى هـذا من بعيد أو قريب . فقد كان فى فترة تحنثه وتحنفه يخلو إلى نفسه وإلى خالقه فى غار حراء ، بعيداً عن الناس وعن ضوضائهم ، قريباً من الله ، يستلهمه الهدى ، ويلج به الشوق إلى نشدان المعرفة والتماس الحقيقة . لا يقرأ فى كتاب : مقدس أو غير مقدس ، ولا يستمع إلى واعظ أو متحنف ، ولا يشارك فى مناقشة . وإنما كان حقاً فى مدرسة الإله الأكبر ، فاطر السموات والأرض ، يتلقى مبادىء الدين من أصفى المنابع ، وفى أهدأ اللحظات ، وأكثرها بعداً عما يشغل الناس من أمور المعاش وغير المعاش . . .

وإذا كانت كثرة من المستشرقين قد أثاروا مسألة سرقة فكرة التوحيد والاقتباس ، ووضعوها فى كفة الاتهام لنبى الإسلام عليه السلام ، فإن منهم من أكد الفكرة وكررها فى مواضع كثيرة مما كتب ، وأدارها على وجوه كثيرة من معارض القول . حتى صارت من طول معاودتها أشبه بالشبهة الملحَّة . ومن هؤلاء المستشرق جولد تسيهر الذى نراه يقول مرة : « لكى نقدر عمل محمد من الوجهة التاريخية ، ليس من الضرورى أن نتساءل عما إذا كان تبشيره ابتكاراً وطريفاً من كل الوجوه ، ناشئاً عن روحه ، وعما إذا كان يفتح طريقاً جديداً بحتاً . فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية ، عرفها أو استقاها

بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التى تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه .. لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاءِ قَوَّتهُ التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً . . . »

وهذه واحدة .. بل هذه داهية ! ولا يكتفى الرجل بها ، بل يقول فى موطن آخر : « هذا ، وفى خلال النصف الأول من حياته — يعنى النبي عليه السلام — اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكارا أخذ يجترها فى قرارة نفسه ، وهو منطو فى تأملاته أثناء عزلته . »

ويستمر الرجل فى خلطه وفى اتهام النبي عليه السلام بوقوعه تحت حالة نفسية مرضية معينة ، حتى يصل إلى موضع آخر لا يبعد كثيراً عن الموضع السابق ، فيقول : « إذن ، ما كان يبشر به خاصاً بالدار الأخرى ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقيناً ، وأقام عليها هذا التبشير . لقد أفاد من تاريخ العهد القديم — وكان ذلك فى أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء — ليذكِّر ، على سبيل الإنذار والتمثيل ، بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ووقفوا فى طريقهم » .

فالنبي هنا — فى نظر تسيهر — لم يكن إلا جامعاً لمواد أخذها من العهد القديم ، ووضعها فى القرآن ليخوف بها المخالفين عن دعوته ، ولينذرهم بأن ما وقع للمخالفين السابقين سيقع لهم ! وانظر ما وراء هذا الكلام

من إنكار كون القرآن من كلام الله ، ودعوى كونه من عمل النبي عليه السلام .

واستمع إلى ما يقوله أيضاً من « أن رهبان المسيحيين وأحبار اليهود صاروا موضع مهاجمة من النبي في القرآن ، وقد كانوا في الواقع أساتذة له » . ثم قوله في موضع آخر : « وأما المذاهب والقواعد الوضعية الواقعية — في الإسلام — فكانت ذات طابع انتخابي كما سبق أن أوضحناه . وقد ساهم في تكوين عناصر هذه المذاهب والقواعد الدين اليهودي والدين المسيحي على سواء » .

وقد بنى الرجل هذه المساهمة في تكوين عناصر هذه القواعد على أن الصلاة في الإسلام بما فيها من قيام وقراءة ، وبما فيها من ركوع وسجود ، وبما يسبقها من وضوء تتصل بالمسيحية الشرقية . كما بناها على أن الصوم — في يوم عاشوراء — كان محاكاة للصوم اليهودي الأكبر ، ثم نقل بعد ذلك إلى شهر رمضان . . !

وعجيب جداً أمر هذا القياس الذي لم يُبنَ على منطق ولا عقل ولا تاريخ . فلقد كان في اليهودية صوم ، وفي المسيحية صوم ، ولكن هل الصوم في الإسلام هو الصوم فيما عداه من الأديان ؟ .

وهل الصلاة في الإسلام ، بقيامها وقعودها ، وركوعها وسجودها . وطهارتها ووضوئها كالصلاة في غير الإسلام من الأديان ؟ .

إن الأديان تدعو إلى الطاعات ، وإلى العبادات ، وإلى مزكيات النفس ومطهراتها ، ولكن لكل دين طقوس عباداته ، فهل معنى وجود

عبادة فى دين ووجود مثلها — فى النوع — فى دين آخر يكفى لاتهام أحد الدينين بأنه أخذ عن صاحبه ؟ اللهم إنه منطق سقيم ، واستنباط غير مستقيم !.

ولا يسكت جولد تسيهر لحظة عن متابعة الاتهام ، والرشق بالسهام ، فتراه فى موضع آخر يقول : « وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية نعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد ، أو الروايات المتواترة المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة » .

فهنا إصرار وعناد ومكابرة . وترديد الكلام وتقليبه هكذا من موضع إلى موضع يدل على سوء النية ، وإلا فكيف يناهض القرآن ابتداعات المسيحية — كما يعترف جولد تسيهر نفسه — ثم يعود ليأخذ منها ويقتبس عنها ؟ .

* * *

وتصحب فكرة « الأخذ والاقتباس » فى القرآن والإسلام عند المغرضين من المستشرقين فكرة أخرى تتصل — فى منطقهم — بها ، وتلازمها دائماً فى مواطن الاتهام ، وهى فكرة التعرض لنوبات الصرع التى قالوا إن النبي عليه السلام كان يعانيها فى فترات الوحى . والغرض فى ذلك واضح غير خفى ، والمقصد بالطبع ملتو غير سوىّ .

وليس هذا الاتهام بجديد على نبي الإسلام . ألم يقل المشركون قبل ذلك ببضعة عشر قرناً إن محمداً به جنة ، وإنه مجنون ؟ ألم يفسروا الحالة التى كانت تعتريه حين نزول الوحى عليه بأنها حالة مرضية ؟ ليحاولوا أن يصلوا بذلك الاتهام الرخيص إلى إنكار الوحى وإنكار نزول القرآن عليه بوساطة جبريل عليه السلام ؟ .

وعجيب جداً أمر هـذا المرض أو هذا الصرع أو هذه النوبات التى أنتجت للبشرية كلها على مدار العصور وحياً خالداً ، وديناً باقياً ، ورسالة للحياة شهد بها المنصفون قبل أن يغمز بها الجاحدون .

فإن كان هؤلاء المنكرون ينكرون الوحى كله ، لا يخصون بذلك نبياً بعينه ، ولا ديناً بذاته ، فالرد عليهم هو الرد على كل ملحد جاحد للأديان ، منكر للوحى والإلهام ، ولرسالات الرسل والأنبياء .

وإن كان المنكرون يقصـدون الوحى المحمدى فنحن نأخذ عليهم الإيمان ببعض الوحى والكفر ببعض .

لقد وصف موسى عليه السلام حالته حين نزول الوحى عليه بقوله : « لقد شعرت بأن قلبى انكسر بين أضلعى ، وارتعشت منى العظام ، فصرت كالنشوان ، لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة » .

وفرق بعيد بين حالة التلقى عن الملك الذى يرسله الله بالوحى ، وحالة الصرع التى نرى فيها المصروع يتعرض لأعراض جسمية ظاهرة يسيل فيها اللعاب فلا يمسك ، ويختلط بالدم المنسكب من أثر اصطكاك الأسنان ، وقد يشج رأسه ، أو يصاب بجرح فى وجهه . فإذا أفاق كان أثر المرض عليه بادياً ، وأثر الذهول عليه ظاهراً . وما عرف فى سيرة النبى عليه السلام — وهى واضحة مكشوفة — أنه كان مريضاً بصرع أو ما يشبه الصرع ، وكان يقوم من حالة الوحى وقد أفاض الله عليه من النور والإشراق ما كان بعد ذلك هداية ورحمة للعالمين .

وما أجمل الكونت دى كاسترو فى إنصافه وهو يرد على هذا الاتهام

قائلا : « ومن ذلك الحين — أى البعثة — أخذت شفتاه — يعنى محمداً عليه السلام — تنطلق بألفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض ، والأفكار تتدفق من فمه على الدوام ، إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت ، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان ، وسما عن أن يترجمه قلم أو لسان . وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعضهم أن به جنة ، وهو رأى باطل ، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اعتلال فى الجسم ، أو اضطراب فى القوة المادية . وليس من الناس من عرف الناس جميعاً أحواله فى حياته كلها مثل النبي . فلقد وصل المحدِّثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض فى لحيته ، ولو أنه كان مريضاً لما أخفى مرضه » .

* * *

وتعرض النبي عليه السلام — فيما تعرض له من اتهام — للافتراء عليه بأنه ساحر كذاب . وهذه تهمة أثارها أعداؤه فى عهده ، ولم يعرفوا أنه اتهام يحمل أسباب بطلانه ، وعوامل هدمه . فهذه حياة النبي منذ ولادته ، حتى مبعثه فى سن الأربعين ، كانت مثالا رفيعاً لحياة الإنسان الكامل الأمين الصادق ، الذى لم يلحظ عليه قومه فى السلوك شيئاً — ولو ضئيلا — مما ينقص من قدر الرجل العادى . فما بالك بمحمد الذى أعده الله للرسالة ، ورباه فى مدرسته الإلاهية التى تخرج فيها قبله الرسل والأنبياء ؟

وظلت تهمة « الكذب » يصوبها أعداء الإسلام فى كل زمان ، حتى

أخذها المتعصبون من أهل هذا الزمان ، فزادوا إلى النار حطباً ، وإلى الجذوة القديمة لهباً . وما كان أكثر إنصاف كارليل الإنجليزى وهو يرد على هذا الاتهام قائلا : « من العار أن يصغى إنسان متمدن من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين : إن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق . لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة . فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ، ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان ، لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة كاذب ؟ أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً ، وكان الأجدر بها أن لا توجد .

« هل رأيتم رجلا كاذباً ، يستطيع أن يخلق ديناً ، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟ إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد . فما بالك بالذى يبنى بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة ، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟

« وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلا كاذباً متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع . . . وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق ، وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول . وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

* * *

سلسلة من الأكاذيب والمفتريات يقذفها الخصوم والأعداء ، رجماً بالغيب ، وقذفاً بغير دليل ، ويلقونها واحدة تلو أخرى كأنما هي حلقة فى مؤامرة ، وخطة مدبرة ، لا يفرغون من تهمة حتى يلحقوا بها غيرها ، وهم لو أفرغوا كل ما فى جعبتهم من سهام ، فليسوا ببالغين شيئاً من محمد أو نائلين شيئاً من الإسلام .

وما أكذبهم وأبعدهم عن الحق وهم يتهمون محمداً بحب السلطان ، فهو اتهام ينهار مع غيره أمام شواهد الحق ووقائع التاريخ .

لقد كان النبي أزهد إنسان فى سلطة الحكم ، وفى كل ظهر من مظاهر الجاه والسلطان . وكان فى يده أن تساق له الدنيا جميعاً لو أرادها ، ولكنه كان يكتفى من كل شيء بالكفاف . وقد أصغر الله فى عينيه الحياة لأنه كان أكبر من كل ما فى الحياة .

ألم يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام فى شمائله المحمدية أنه كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويخدم نفسه ، وكان يشغل فراغه فى البيت — بعد العبادة — بما لا يرى معه فارغا فى بيته ؟ ألم يؤثر عنه أنه كان يأكل مع الخادم ، ويطحن معه ، ويحمل بضاعته من السوق ، فلم يتكبر على عمل وخاصة فيما يخدم به نفسه وبيته ؟

وفيم يطلب الناس السلطان والجاه ؟ أليسوا يطلبونهما للثراء والمال والتوسعة فى شئون الحياة ؟ وما ظنكم بمن يُتهم بأنه كان يبغى السلطان والحكم ، ثم يرفعه الله إليه ، فإذا درعه مرهونة على مبلغ من المال كان أنفقه فى سبيل العيال ؟ ثم عند من كانت هذه الدرع مرهونة ؟ لقد كانت عند يهودى من أهل المدينة !

وما أصدق توماس كارليل وهو يقول فى نفى هذا الاتهام : « ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان . . . كلا واسم الله ! لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس ، المملوء رحمة وبراً وحناناً ، وخيراً ونوراً وحكمة ، أفكار غير الطمع الدنيوى ، وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان » .

* * *

ولما تفرغ بعد قائمة الاتهام لنبي الإسلام ، وكيف تفرغ التهم والقوم راصدون لا يفرغون من كلام إلا إلى كلام ؟ لقد ادعوا ـ فيما ادعوه ـ أن النبي عليه السلام كان قاسياً فظاً ، لا تنفذ الرحمة إلى قلبه ، وهى نغمة قديمة شهد الله لنبيه بكذبها فى قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » ، وهى شهادة كانت تكفى لرد كل بهتان ، لو استوى بين الكاذبين الإسرار والإعلان . وَمَن أصدق من الله قيلا ؟ ومن أعظم من الله شهادة ؟ ولكن الأغراض تعمى العيون عن وضح النهار ، وتعشيها عن الحق المؤيد بأوثق الدلائل وأصح الأخبار .

ولو رجعوا إلى التاريخ ، وتجردوا من الهوى بعض الحين لوجدوا إجماعاً فى كل مصادر السيرة على موقف الرسول الرحيم من أسرى غزوة بدر . فقد استشار النبي عليه السلام بعض الصحابة فيهم وفى الموقف الواجب اتخاذه منهم . ولم يكن الرأى كله على سواء ، بل اختلف تبعاً للعواطف والمؤثرات والاعتبارات وحزازات النفوس وطبائعها . فأشار عمر بن الخطاب بقتلهم وأخذهم بالشدة حتى يرهب من عداهم . وكان رأى عمر صريحاً واضحاً ، فقال : « يارسول الله قد كذبوك ، وأخرجوك

وقاتلوك . وما أرى ما رأى أبو بكر — وكان أبو بكر رأى استبقاءهم وأخذ الفداء منهم عسى أن يهديهم الله فيكونوا عضداً للإسلام والمسلمين — ولكنى أرى أن تمكننى من « فلان » — وهو قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل أخيه فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه ، حتى يُعلم أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين . ما أرى أن يكون لك أسرى ! فاضرب أعناقهم ! هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم » .

وبالطبع أعرض الرسول عن رأى عمر ، وأخذ برأى أبى بكر الصديق . ولم يكن ابن الخطاب هو المتشدد الوحيد فى أخذ أسرى بدر ، بل كان عبدالله بن رواحة أكثر منه شدة ، فقد رأى إحراقهم فى واد كثير الحطب..

ولو أن النبى كان قاسياً — كما يتهمه المغرضون — لأخذ برأى أنصار الشدة والقسوة فى موقف لا يلومه فيه اللائمون .

على أن النبى قد ذهب فى الرحمة مع أسرى بدر إلى أبعد الحدود وأعرقها فى الإنسانية الرحيمة التى تلتمس الأعذار للضعف عند الإنسان . فقد قبل عليه السلام فداء الأسرى ، ومنّ على نفر قليل منهم بالخلاص بدون فداء ، مراعاة لظروفهم وأحوالهم ، ومنهم أبو عزة الجمحى الشاعر ، الذى كان كثير الإساءة والهجاء للنبى بشعره . فقال : يارسول الله : إنى فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها ، فامنن علىّ ! فمنّ عليه النبى وأطلقه ، وأخذ عليه عهداً أن لا يظاهر عليه أحداً . ولكنه ما كاد يرجع إلى مكة حتى نقض العهد ، فأمر النبى بضرب عنقه ، فتوسل معتذراً ، ولكن النبى عليه السلام لم يقبل عذره قائلا : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

فهنا رحمة فى موضعها ، وهنا شدة فى موضعها ، وهى شدة اقتضتها الخيانة ، وقد أنزل الله فى هذه الحادثة قوله تعالى : « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ »

وكل مواقف النبي تدل على الرحمة البالغة . فقد تأثر أبلغ التأثر مما صنعه خالد بن الوليد ببنى جذيمة فى السنة الثامنة من الهجرة — بعد فتح مكة — حتى لقد بدا الغضب على وجهه وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد »

وكان خالد قد بعثه الرسول إلى بنى جذيمة داعياً إلى الإسلام لا مقاتلا. فخرج فى ٣٥٠ رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم ، فانتهى إليهم خالد قائلا : من أنتم ؟ قالوا : مسلمون ، قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذّنا فيها . قال : فما بال السلاح عليكم؟ فقالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، فأخذنا السلاح . فأمرهم بوضع السلاح وأمر رجاله بقتلهم . ونفذ بنو سليم الأمر وقتلوا كل من كان بأيديهم ، وامتنع المهاجرون والأنصار.

ولم يكتف النبي بالغضب الشديد لما صنعه خالد ، بل أرسل على ابن أبى طالب ومعه مال ، فدفع به ديات قتلاهم .

موقف كريم رحيم ، يتناساه المبطلون حين يقفون للاتهام ، ولكنهم يذكرون مقتل النضر بن الحارث الذى قال ما قال فى القرآن مثل قوله : إنه أساطير الأولين ، وقوله : ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، والذى كانت عداوته مبينة شديدة . وقد قتل النضر يوم بدر ورثته أخته قتيلة بنت الحارث بأبيات تقول فيها للنبي :

أمحمد ولأنت صنو كريمة   في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما   منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق ؟

وقد بكى النبي عليه السلام حين سمع هذا الشعر ، وقال : « لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه » . وليس معنى هذا أن ما فعله النبي لم يكن على حق ، وإنما معناه أنه عليه السلام كان يقبل الشفاعة فيه .

هذه حادثة استغلها المتعصبون ليرموا النبي بالقسوة ، مع أنه كان على الحق كله في موقفه ، وأغفلوا كل مواقف الرحمة التي سجلتها له كتب السير والتاريخ .

وما أنصف ما قاله المؤرخ سيديو في هذا الشأن : « ومن التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد بالقسوة والجبن . فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يأل جهداً في إلغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة التي كانت ذات حظوة لدى العرب ، كحظوة المبارزات بأوربة فيما مضى . . وكأن أولئك الكتاب لم يقرءوا آيات القرآن التي قضى محمد فيها على عادة الوأد الفظيعة . وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على ألدّ أعدائه بعد فتح مكة ، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة ، ولا إلى ما أبداه من أسف على بعض الأحكام المبتسرة ، وكأنهم لم يبصروا أن الأمة العربية تعد الانتقام أمراً واجباً ، وأنها ترى من حق كل شخص أن يقتل من غير عقاب من يكون خطراً عليه ذات يوم . . . وكأنهم لم يعلموا أن محمداً لم يسيء استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم ، قضاء لشهوة القسوة الدنيئة ، وأنه لم يأل جهداً — في الغالب — في تقويم من يجور من أصحابه .

وكل يعلم أنه رفض — بعد غزوة بدر — رأى عمر بن الخطاب فى قتل الأسرى. وأنه عند ما حل وقت مجازاة بنى قريظة ترك الحكم فى مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ . وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة . وأنه لم يرفض — قط — ما طلب إليه من اللطف والسماح . وليس بمجهول أن خالد بن الوليد — الذى كان من أشجع قواده — لم يستطع أن يرعوى — بعد إسلامه — من روح القسوة والصولة التى كانت تلازمه فى زمن الجاهلية . فلاحت له الفرصة بأن يثأر لقريبه القتيل ، فأثخن فى بنى جذيمة ، فأجمع المسلمون على استفظاع عمله . فلما نبىء محمد بما صنع خالد ، أسرع فى ذمه جهاراً ، فرفع يديه إلى السماء قائلا : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد . » .

نعم ! هذه كلمة إنصاف قالها مؤرخ أوربى دفاعاً عن نبي الإسلام من تهمة القسوة التى رماه بها المتعصبون . فهم ما برحوا يرددون مقتل النضر بن الحارث ، ويهولون فيه ، ويعلقون النتائج عليه ، تبعاً لأهوائهم . وما برحوا يضيفون إلى مقتل النضر مقتل كعب بن الأشرف اليهودى الذى كان يجمع إلى المكانة والسيادة بين اليهود ، الشعرَ الذى سلطه على النبي هجاء وتحريضاً ، وغمزاً فى أعراض نساء المسلمين بالمدينة ، وكثيراً ما كان النبي يدعو الله قائلا : اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت ! وبلغ بالرجل الشر على الإسلام ونبي الإسلام أنه كان يرمى إلى ثورة فى المدينة ضد الرسول عليه السلام . فأى غرابة فى أن يأمر النبي بقتله درءاً للفتنة ودفعاً للأذى ؟

وقد أجمع مؤرخو السيرة والإسلام على أن مقتل كعب بن الأشرف

اليهودى كان فى السنة الثالثة من الهجرة وقبل غزوة أحد ، وأن موقف كعب من تحريض قريش على القتال والتشبيب بنساء المسلمين هو الذى دفع إلى مصرعه جزاء وفاقاً ، ولكن الدكتور إسرائيل ولفنسون اليهودى — الذى كان مدرساً بجامعة القاهرة ودار العلوم ، من أكثر من ربع قرن — يذكر فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » أن النبى عليه السلام أمر بقتل كعب فى السنة الرابعة من الهجرة وبعد غزوة أحد ... واستند فى ذلك إلى رواية ضعيفة جداً للمؤرخ اليعقوبى ، وهدفه من ذلك أن يصور مقتل كعب بأنه كان ظلماً بلا جريرة ، وأنه لم يكن إلا بمثابة إعلان الحرب على بنى النضير من اليهود ، لأنه كان زعيما من زعمائهم .

إذن هى محاولة للاتهام ، لأن إعلان الحرب — كما يقول ولفنسون — لا يسوغ القتل فى غير ميدان القتال .

ألم أقل لك إن المبطلين من المستشرقين وغير المستشرقين لم يدعوا تهمة يتصورها العقل توجه إلى إنسان إلا ألصقوها بالنبى عليه السلام ؟ حتى فضائل النبوة وخصائصها عنده عليه السلام قد أحالوها إلى مواطن للاتهام . وما أصدق شاعرنا الذى يقول :

إذا محاسنى اللائى أدِلُّ بها   كانت ذنوبا فقل لى كيف أعتذر ؟

نعم ! لقد أحالوا صدق النبى فى سلوكه وفى حياته وفى رسالته وفى عموم دعوته إلى كذب .

وأحالوا رحمة النبى ، ورقة قلبه، وكثرة شفقته إلى قسوة ، بل جعلوها قسوة بالغة !

وأحالوا زهده عليه السلام ونفوره من السلطان ، وتواضعه إلى شهوة جامحة إلى الحكم وحب بالغ فى السلطان .

ونسوا فى ذلك رعاية الحق ، وأمانة التاريخ ، ونصفة الحكم ، ونزاهة العلم ، بل نسوا أبسط قواعد الذوق والمجاملة والأدب فى التهجم على منازل الأنبياء .

* * *

وبقى فى جعبة الاتهام تهمة ألح المتعصبون عليها ، واستغلوها فى كل مداورة للجدال ، وشوهوا فيها الحقائق بما يلائم أغراضهم ، ويتفق وأهواءهم .

لقد اتهموا النبى بالشهوة الجامحة ، والميل إلى النساء ، واتخذوا من تعدد زوجاته دليلا حسبوه يكسبهم القضية ، وهو دليل أوهى من خيط العنكبوت حين يعرض على ميزان الحكم السليم ، والرأى المستقيم .

واتخذوا من حادث زواجه عليه السلام بزينب بنت جحش مطلقة مولاه ومتبناه زيد بن حارثة سببا لإساءة المقال ، وتكسير النصال على النصال .

وتجد مثل هذه التهمة واضحة سافرة عند أمثال موير ودرمنجهم وواشنطون إرفنج ولامنس وغيرهم ممن يروج عندهم رخيص الاتهام .

لقد قالوا إن النبى بعد وفاة السيدة خديجة كان قد بلغ الخمسين ، وكانت أكبر منه سنا ، فما كاد يفرق الموت بينها وبينه حتى رجع إلى صباه يطلق له العنان بمن يشاء من الزوجات !

وقالوا إنه أباح لنفسه من التعدد والزيادة على أربع فى عصمة يده ما حرمه على المسلمين . . .

وأطالوا القول فى زواجه بابنة عمته : زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة .

ولم يخل الاتهام من مغالطات إثر مغالطات ، ومن إغراق فى الخيال مما يسمح به الكلام فى هذا المجال ! فقد صوروا النبى عليه السلام مولها مدلها بحب زينب بنت جحش حين رآها فى ثياب أبدت محاسنها ، وكان زوجها زيد غائباً ، فبلغت من نفس النبى ، ووقع منها شىء فى قلبه ، حتى قال : « سبحان مقلب القلوب ! » .

وقصة زينب بنت جحش وزيد بن حارثة قد وردت فى القرآن الكريم على نحو يطمئن إليه القلب ، ويبعد معه الريب . وبها تقرر مبدأ هام فى الإسلام أو مبدءان . أما الأول فهو هدم العصبية والتفاوت الطبقى . فقد كانت زينب حفيدة لعبد المطلب ، ومن مكان الشرف فى بنى هاشم . وكان زيد مولى تبناه الرسول ، فكان الزواج بينهما على هذه الصورة التى أقرها القرآن هدماً لاعتبارات الجاهلية ومقاييسها العصبية . أما المبدأ الثانى ، فهو هدم ما كان مقرراً فى الجاهلية من أن الابن بالتبنى كان له حق الميراث وحرمة النسب ، فلا يجوز لمدّعيه أن يتزوج من كانت زوجته .

وهى قصة ليس فيها من التعقيد والخيال والأحلام والأوهام ما أطال فيه الجاحدون اللجاج .

أما القول إن محمداً عليه السلام أباح لنفسه من تعدد الزوجات ما حرمه على المسلمين ، ففيه من المغالطة وإغفال التاريخ ما يسقط معه القول . فإن الآيات الخاصة بالزواج من أربع ، والتى تؤثر الواحدة خوف عدم العدل ، والتى تجعل العدل بين النساء أمراً غير

مستطاع — قد نزلت فى أواخر السنة الثامنة من الهجرة ، بعد أن كان النبي عليه السلام قد بنى بنسائه جميعاً ، وقد كان العدد قبل ذلك غير محدد بأربع زوجات ؛ وإذن فلا مجال للاتهام بتحليل الزيادة على أربع لنفسه وتحريمها على بقية المسلمين ممن يشرع لهم ، ويضع عنهم أصرهم . . .

وما أجمل ما قاله توماس كارليل فى هذا المقام : « ما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً . وشد ما نجور ونخطىء إذا حسبناه رجلا شهوياً ، لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا ! فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت . . . » .

* * *

وهكذا نجد التهم تنهار أمام شرعة الإنصاف ، وتجنب الإجحاف ، مهما كان جنس المنصف وملته . فإن الحق لا يبالى بتافه الاعتبارات ، فى سبيل أشرف الغايات . . .

مصادر البحث ومراجعه

مراجع عربيـــة

١ — اجتهاد الرسول .

للشيخ عبد الجليل عيسى — القاهرة

٢ — الإسلام على مفترق الطرق .

لفايس — ترجمة الدكتور عمر فروخ — بيروت

٣ — الإسلام فى نظر الغرب .

ترجمة الدكتور إسحاق موسى الحسينى — بيروت

٤ — الإسلام والحضارة العربية .

لمحمد كرد على — القاهرة

٥ — الإسلام والنصرانية .

للشيخ محمد عبده — القاهرة

٦ — إعجاز القرآن .

للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر — القاهرة

٧ — إنقاذ المجتمع الإسلامى .

للمستشرق جب ، ترجمة الدكتور عادل العوا

٨ — تأويل مشكل القرآن .
لابن قتيبة — تحقيق السيد أحمد صقر — القاهرة

٩ — تاريخ الحضارة الإسلامية .
لبارتولد ، ترجمة حمزة طاهر — القاهرة

١٠ — تاريخ العرب العام .
لسيديو ، ترجمة عادل زعيتر - عيسى الحلبي - القاهرة

١١ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن .
للشريف الرضى ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن — عيسى الحلبي — القاهرة

١٢ — ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن .
للخطابى والرمانى والجرجانى ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام

١٣ — حاضر العالم الإسلامى .
للوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض وتعليقات الأمير شكيب أرسلان — عيسى الحلبي — القاهرة

١٤ — حضارة العرب .
لغوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر - عيسى الحلبي

١٥ — حياة محمد .
لدرمنجهم ، ترجمة عادل زعيتر - عيسى الحلبي - القاهرة

١٦ — حياة محمد .
للدكتور محمد حسين هيكل — القاهرة

١٧ — الدعوة إلى الإسلام .
لتوماس أرنولد ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن
وعبد المجيد عابدين — القاهرة

١٨ — الديمقراطية فى الإسلام .
لعباس محمود العقاد — القاهرة

١٩ — رسائل ابن حزم الأندلسى .
تحقيق الدكتور إحسان عباس — دار الفكر العربى

٢٠ — رسالة لمؤتمر الأديان .
للشيخ محمد مصطفى المراغى — القاهرة

٢١ — الرسول « عليه السلام » .
لبودلى ، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ، ومحمد محمد
فرج — القاهرة

٢٢ — الزواج فى الإسلام .
لأسعد لطفى — القاهرة

٢٣ — سيرة ابن هشام .
لابن هشام — القاهرة

٢٤ — صلة الإسلام بإصلاح المسيحية .
لأمين الخولى — القــاهرة

٢٥ — العقيدة والشريعة فى الإسلام .
لجولد تسيهر ، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى
وزملائه — القاهرة

٢٦ — الغزالى .
لكارادى فو ، ترجمة عادل زعيتر ـ عيسى الحلبى

٢٧ — لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم .
للأمير شكيب أرسلان — القاهرة

٢٨ — ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
للسيد أبو الحسن الندوى — لجنة التأليف والترجمة

٢٩ — محمد « صلى الله عليه وسلم » .
لمحمد رضا — عيسى الحلبى — القاهرة

٣٠ — المرأة والدولة فى فجر الإسلام .
لنابية أبوت ، ترجمة محمد عبد الغنى حسن — مطبعة
المقتطف — القاهرة

٣١ — المسلمون تحت الحكم الشيوعى .
لمحمد سامى عاشور — القاهرة

٣٢ — معالم تاريخ الإنسانية .
لويلز ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — القاهرة

٣٣ — المقارنات التشريعية .
للدكتور سيد عبد الله حسين - عيسى الحلبي - القاهرة

٣٤ — يوم الإسلام .
للدكتور أحمد أمين — القاهرة

مراجع انجليزية

1 — Mohammedanism — by H. A. R. Gibb. London 1949.

2 — The Traditions of Islam — by A. Guillaume. Oxford 1921.

3 — Mohammedanism — by D. S. Margoliouth. London 1911.

4 — Life of Mahomet — by W. Muir — Edinburgh 1923

5 — The Reconstruction of Religious thought in Islam by Mohammed Iqbal — Lahore 1958.

6 — The Teaching of Islam — by Y. Szynhiewicz. Cairo.

مراجع فرنسية

1 — L'Islam dans le monde — Par Arthur Pellegrin-Paris 1937.

2 — La Vie de Mahommet — Par E. Dinet — Paris 1937.

الفهرس

صفحة

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

صفحة

الفصل التاسع :

طبع بمطبعة العـالم العربى
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة
تليفون ٤٤٧٠٦



مؤسسة المطبوعات الحديثة

شارع ماسبيرو رقم ٣ بالقاهرة

الجمهورية العربية المتحدة

